أعلام العرب

٧٨

عبد الكريم الخطابي

دكتور
جلال يحيى

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر – ١٩٦٨

مقدمة

عجـــز الكتاب والمؤرخون العــرب ، رغم نشاطهم ، حتى الآن عن كتابة تاريخ حياة هذا العلم العربى ، وهو الأمير عبد الكريم الخطابى.

ولقد كتب فيه وفى حياته ونشاطه وكفاحه عدد من المقالات التى ظهرت فى بعض المجــلات العربية من وقت لآخر ، الا أنها لم تتمكن من اعطاء صورة واضحة ومتكاملة عن حياة هذا البطل ، الذى أثر فى حياة المغرب العربى وفى تاريخ حركة تحريره من الاستعمار ، أكبر تأثير .

كما تناولت بعض المقالات الأوربية جوانب من حيـــاة هذه الشخصية ، وانقسمت على نفسها ، ونتيجة لاتجاهاتها ، بين محبذ مقرظ ومشجع ، وبين حانق مهاجم موتور .

والواقع أن حياة الأمير عبد الكريم الخطابى تعتبر سجلا حافلا بجلائل الأعمال ، وتشتمل على جوانب متعددة ، امتاز بها هــذا القائد فى ميادين الحرب والسياسة ، والادارة والتنظيم ، هذا علاوة على أنه كان رجل مبادىء واضـــحة

ومتحررة ، وحمل شعار الحق بالنسبة للأفراد والجماعات والأمم ، وكل ذلك فى اطار واضح من الانسانية العميقة ، وحسن التقدير للرجال وللمواقف .

وينظر البعض الى الأمير عبد الكريم الخطابى على أساس أنه – مجرد – ذلك القائد الذى قاد عمليات تحرير منطقة الريف عسكريا ضد قوات الاحتلال الأسبانية فحسب ، وينظر آخرون اليه على أنه – مجرد – صاحب المبادىء الجمهورية ، واعادة تنظيم المنطقة الشمالية من المغرب تنظيما سياسيا واداريا بشكل حديث ؛ وهناك غيرهم من الذين ينظرون اليه على أساس كونه زعيما لحركة تحررية وطنية ، قادها فى اقليم معين من أقاليم الوطن العربى الكبير ، وكذلك الحال بالنسبة لمن ينظر اليه على أنه رجل مبادىء لم تتغير منذ عمليات كفاحه فى العشرينات برغم نفيه عن بلاده أكثر من عشرين سنة .. والواقع أن الأمير عبد الكريم الخطابى هو كل ذلك ، بل وأكثر من ذلك بكثير ، وعلينا أن نعترف بأن التاريخ المعاصر لم يتوصل حتى الآن الى شرف معرفة حقيقة هذا القائد البطل الأمير .. وعلينا أن نسأل رجاله فى الريف ، ونسأل زعماء المغرب والجزائر وتونس ، ورجالات مصر الذين عملوا معه فى الفترة الأخيرة ، وفى فترة اقامته فى أرض الكنانة لكى نعرف جوانب متعددة من حياته ، ونسجل صورا رائعة لمواقف هذا البطل فى شبابه وفى فترة نضجه، وحتى فى أيام شيخوخته .

وانى لا أتطاول على ادعاء كتابة حياة هــذا البطل بصورة كاملة ، بل أعتبر أنها محاولة مبدئية تسعى الى جمع خطوط عامة عن حياته ، وتفتح الأبواب أمام الباحثين والمنقبين لمواصلة البحث والاستقصاء فى هذا الميدان ، حتى نتمكن من اعطاء هذه الشخصية بعض ما تستحق من عناية ورعاية واهتمام .. وما زال هناك الكثير لكى يكتشف حول هذه الشخصية ، وتقع مسئولية معرفته وجمعــــه وتســـــجيله على كل من المؤرخين والصحفيين ، وأيضا على ذلك العدد من الزعماء والقادة الذين عرفوه عن قرب ، وما زال التاريخ فى أشد الحاجة الى رواياتهم ، والى مذكراتهـم الخاصـــــة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أقصد اليه من محاولة مبدئية ، وعلى الله قصد السبيل .

الاسكندرية فى

٢٣ يوليو سنة ١٩٦٦ .

دكتور

جــــلال يحيى

الفصل الاول

بلاد الريف معقل الأبطال

بلاد الريف هى ذلك الاقليم الشمالى من المغرب الأقصى الذى يمتد من حدود الجزائر فى الشرق حتى مضيق جبل طارق وطنجة فى الغرب ، وله واجهة على المحيط الأطلسى ، تمتد حتى ميناء العرائش التى تقع عند مصب نهر اللوكوس .

وبلاد الريف بلاد جبلية ، وتحمل الاسم الذى تحمله سلاسل الجبال الشاهقة ، والتى تمتد فيها من الشرق الى الغرب ، ويصل ارتفاع قممها فى بعض المناطق الى ثلاثة آلاف متر ، ولهذه الجبال سفوح تواجه الشمال ، وتنحدر صوب البحر المتوسط ، وان كان هذا الانحدار يأخذ شكلا صعبا ، ومفاجئـــا فى معظم الأماكن ، ولا ينزل صوب البحر بتدرج سهل بسيط الا فى بضعة أماكن فقط على طول هذه السلسلة الجبلية الطويلة ، ولذلك فان عدد هذه الموانى الموجودة على سواحل الريف هو عدد بسيط ، ونذكر من هذه الموانى على التوالى ، ومن الشرق الى الغرب ، كل من مليلة والحسيمة ثم تطوان ، وان كانت ميناء داخليا ، وأخـــيرا سبتة التى تقع على المدخل الشرقى لمضيق جبل طارق ، ولها أهمية استراتيجية فائقة .

والواقع أن قلة عدد الموانى فى الساحل الشمالى للمغرب قد أعطى لهذه الموانى أهمية كبيرة ، خاصة وأن هذا الساحل يواجه الساحل الأسبانى ، ويمكنه أن يتحكم بقواعده فى الملاحة فى مضيق جبل طارق .. ونذكر جميعا تلك الأهمية الخاصة التى امتاز بها

مثلث سبتة ـ طنجة ـ جبل طارق ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وخاصة بالنسبة لعمليات الملاحة والتموين بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسى .

وليست هذه الأهمية الحالية بأقل من أهمية هـــذه المواقع الاستراتيجية فى أثناء السنوات الأولى من القرن العشرين ، أو حتى أهميتها بالنسبة للملاحة فى خلال عصر النهضة ، وفترة فجر التاريخ الحديث .

ولا يمكننا أن نتجاهل تأثير التضاريس الجغرافية الموجودة فى الاقليم على علاقة أبناء الريف بجيرانهم فى الجنوب ، واخوانهم فى الشرق ، وكذلك علاقاتهم بجيرانهم فى الشمال ، وفيما وراء مياه البحر المتوسط ، وهم سكان شبه جزيرة ايبريا وبخاصة الأسبان.. واذا كان هناك بعض الطرق الجبلية المرتفعة التى تسير الى جوار قمم جبال الريف الشاهقة لكى توصل أبناء الريف ببقية سكان المغرب الأقصى ، فمما لا شك فيه أن الوضع الطبيعى لطرق المواصـــلات مع هذه السلسلة الجبلية الشاهقة ، هو أن تســـير بين الشرق والغرب ، وتوصل بالتالى رجال الريف بسكان المنطقة الشمالية فى الجزائر ، وبسهولة أكبر من تلك التى توصلهم بها بسكان المغرب الأقصى.. ونلاحظ الآن ـ وبرغم اختلاف الأوضاع السياسية والادارية من عصر لعصر ـ نزول عدد من رجال الريف الى المنطقة الشمالية من الجزائر ، طلبا للعمل ، حتى وان كان هذا العمل موسميا .. ويساعد فقر اقليم الريف ، وقلة المساحات الصالحة للزراعة فيه على هذه الهجرة الموسمية التى ترجع بدون أدنى شك الى عصور سابقة وقديمة .. والمهم هو أن طرق المواصلات الممكنة قد أثرت فى علاقة رجال الريف بجيرانهم ، وأن الترابط الحضارى الموجود بين رجال الريف ورجال الجزائر يزيد فى شدة أواصره عن ذلك الترابط الموجود بينهم وبين بقية أبناء المغرب الأقصى .

ومما لا شك فيه أن طبيعة هذه البلاد قد تحكمت كذلك ، وفى كل عصور التاريخ ، فى الطريقة التى تمكنت بها الآراء والحضارات من أن تتوغل فى هذا الاقليم .. واذا كانت الغارات الرومانية قد تمكنت من التوغل عبر اسبانيا فى منطقة طنجة ، فانها قد عجزت عن التوغل الفعلى والتأثير فى اقليم الريف .. أما دخول الاسلام فانه قد أتى عن طريق الجزائر ، وفى خطوط موازية للساحل ، وأثر فى هذا الاقليم أكبر تأثير .

ولقد كان من الصعب على الأجانب ، وعلى سكان السهول أن يتوغلوا فى الجبال ، ويسيروا فى دروبها ومسالكها ، ويتحكموا فى أهلها ، وهم كالنسور على قمم هذه الجبال .. ولكن الأمر كان سهلا بالنسبة لأهل الريف حينما يقررون النزول من جبالهم الشاهقة الى السهول القريبة منهم .. وهكذا نجد أن طبيعة الأرض نفسها قد أثرت على تحركات جيرانهم ، واخوانهم فى المناطق القريبة منهم ، واحتفظت للريف ، ولرجال الريف بصفات معينة ، وميزتهم بها عن جيرانهم .

ولا شك أن الاسلام كثورة تحررية كبرى ، قد وجد استجابة عظيمة عند أبناء الريف ، وانهم قد وجدوا فيه ، وبصفته دين الفطرة ، ودين الحق والقـــوة ، معبرا عنهم ، وعن شـــعورهم وأخلاقهم ، وكانت الغالبية العظمى من قوات المسلمين التى فتحت الأندلس للاسلام هم من رجال الريف .. وجاء تطور الأحداث بعد ذلك ، وعلاقة هؤلاء المغاربة بالأندلسيين ، وبالاسبانيين ، لكى تدعم من أركان الفكرة الاسلامية فى هذا الاقليم ، وبشكل يجعلهم لا يعرفون لأنفسهم شخصية أخرى غير الاسلام .

وكان امتداد الاسلام الى الأندلس تجربة قل أن يجود التاريخ بمثلها ، وان كانت هذه العملية قد تمت بدماء كثير من أبناء الريف ومجهوداتهم .. ولقد كسبوا بلادا جديدة للاسلام ، وأثروا فيها ،

وفى تاريخها ، وفى تاريخ العالم ، وان كانت نفس هذه التجربة قد أثرت فيهم ، والى حد بعيد .

واذا ما سايرنا ابن خلدون فى فلسفته للتاريخ ، وفى تاريخ العرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، لوجدنا أن البداوة قد تحولت مع الزمن الى نوع من الاستقرار ، ثم تطورت بعد ذلك الى شكل من أشكال الرفاهية والحضارة الرقيقة .. جاءوا من جبال المغرب فاتحين بلاد الله لدين الله ووجدوا بين يوم وليلة أن عليهم كسب شعوب الى دين الله الحنيف ، وادارة بلاد ، وتسلم جزية وخراج .. جاءوا رجالا ، واضطروا الى البقاء ، والى التزاوج ، وانجاب أجيـــال جديدة تزيد من عدد المسلمين ، ومن عدتهم فى أيام السلم وأيام الحرب .. لقد انضم جزء كبير من هؤلاء الرجال المغاوير فى الأندلس ، فى نفس الوقت الذى قاموا فيه بهضمه ؛ ونشأ عن ذلك مجتمع جديد ، عربى اسلامى أندلسى ، يحمل عناصر القوة ، وعناصر الحمية ، ويعيش فى بلاد خصبة غنية ، وتحت ظلال وارفة من الحدائق والمنتزهات . لقد وصلوا فى هجماتهم العنيفة الى تور ، وكادوا أن يدخلوا باريس ؛ وسارت مجموعات أخرى منهم صوب الاقليم الجنوبى لنهر الرون . واذا كانت القوة العسكرية للمجموعة الأولى قد اضطرت الى التقهقر أمام قوات شارل مارتل ، فان المجموعات الثانية قد أقامت فى الاقليم الجنوبى لنهر الرون ما يقرب من ثلاثمائة سنة ، وأثرت فى هذه الأقاليم أكبر تأثير ؛ ولا تزال الصفات والأخلاق العربية والريفية موجودة فى هذه المناطق ، اذ أن الدماء العربية والمغربية قد دخلت اليهـــا .

وليس هناك من مؤرخ يمكنه حتى الآن أن يتجاهل أهميـــة الدور الذى قام به أبناء المغرب فى نشر الحضارة والثقافة العربية فى كل الأقاليم المجاورة لهم . ولكن تطور البداوة الى الحضـــارة والاستقرار ، ثم تطورها بعد ذلك الى الرفاهية ، أدى بالتالى الى

نوع من الضعف العسكرى والادارى ، ثم أدى بعد ذلك الى نوع من الانفصال بين هذه العناصر التى جاءت من أقاليمها مجاهدة مكافحة ، وبين بقية أهلها التى ظلت فى معاقلها فى أعلى الجبال .. وجاء الانقسام الداخلى والتفكك ، ومعه تعدد القيادات ، وكثرة الأمراء ، عوامل تحسب على العرب والمسلمين ، خاصة فى وقت زادت فيه النعرة القومية فى بعض الأقاليم الأيبيرية الجبلية ، وحاولت فيه قيادات مسيحية أن تكسب ما فقدته منذ قرون .. واحتاج أمراء الأندلس فى ذلك الوقت ، وهم مجاهدو ومكافحو الاسلام بالأمس ، الى موجات جديدة تأتى من الشمال الافريقى ، لكى تغذيهم بالدماء وبالحماس وبالحمية ، وبالقوة اللازمة للجهاد .. وزاد ذلك من عدد الطوائف فى الوقت الذى احتاج فيه المجاهدون الى وحدة الصف ، خاصة وأن المعركة كانت واحدة .

وكما شاهدت هذه الأقاليم أيام عز الاسلام ومجده ، شاهدت أيام ضعفه وانقسامه وتقهقره .. وبعد قرون من العز والمجد كتب على أبناء أبطال ومجاهدى المغرب أن يتقهقروا ، وخاصة بعد أن تطوروا ، يتقهقروا من جديد صوب الأقاليم الشمالية من المغرب.

وان قصة ضياع غرناطة وسقوطها فى أيدى جنود الملكة ايزابيلا ــ فى عام ١٤٩٢ ــ لتعتبر فاصلا هاما فى تاريخ كل من المغرب والأندلس .. ولقد حدث ذلك فى نفس السنة التى وصل فيها كريستوف كولمبس الى العالم الجديد ، وانفتحت بذلك آفاق جديدة أمام الاسبانيين لتكوين دولة قوية ، تعتمد على استعمار العالم الجديد ، فى الوقت الذى أصبح فيه على الأندلسيين أن يتقهقروا ويعودوا الى موطن آبائهم وأجدادهم ، والى بلاد الاسلام فى المغرب العربى .. واذا كانت اسبانيا قد تمكنت فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر . والسنوات الأولى من القرن السادس عشر . من تجميع ثروة كبيرة ، نتيجة لتوسعها الاستعمارى فى العالم الجديد ، فان البرتغاليين قد تمكنوا

بدورهم ، وفى نفس هذه الفترة ، من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، ومن الوصول الى مياه الهند والى جزر التوابل فى الشرق الأقصى ، وحرموا بذلك العرب من مورد كان يعد من بين أهم موارد رزقهم وكسبهم .. وسارت الأمور بعد ذلك على أساس قلة الامكانيات الموجودة فى أيدى العرب ، وتزايد هذه الامكانيات فى أيدى المستعمرين الغربيين .

ولكن عملية خروج الأندلسيين من بلادهم وديارهم لم تكن مجرد عملية حربية تهدف استعادة الاسبانيين لأرض كانت قد أصبحت موطنا للاسلام منذ خمسة قرون ؛ بل لقد تعدتها الى حرب اقتصادية . وأعطت نفسها صفة حرب صليبية ، وحاولت أن تزيد من حماس الاسبانيين والبرتغاليين ، باعطائها هذا اللون الدينى الذى وصل الى حد من التعصب لم يشهد تاريخ الانسانية مثله من قبل .. فلقد عمل الاسبانيون على اجبار الأندلسيين على الاختيار بين السيف وبين الدين المسيحى ، وكم من شهيد فقده الاسلام فى هذه البلاد أبى الا أن يموت على دين الله الحنيف .. ومع هذه الموجة من التعصب المسيحى خرجت الآلاف من الأهالى ، مع نسائها وأطفالها ، هربا من الموت ، صوب السواحل الشمالية للبلاد المغربية .. ولكن سفن المسيحيين كانت تتعقبهم لكى تنكل بهم ، وتغرقهم فى سفنهم قبل أن يصلوا الى ديار الاسلام .. وكانت المعارك والمذابح ، وكانت حربا واضحة ، أخذت لون الصراع بين المسيحية والاسلام .

ولقد تمكن عدد من هؤلاء المهاجرين المسلمين ، وهم أحفاد أبطال المغرب المغاوير ، من الوصول فى ذلك الوقت ، مع نسائهم وأطفالهم ، الى أقرب الموانى المغربية اليهم .. وصلوا الى طنجة ، والى سبتة ، والى تطوان ، والى الحسيمة ، والى الناضور ، والسعيدية ، وكذلك الى وهران ومستغانم ، وحتى الى مدينة طرابلس الغرب .. وكانوا أساسا لنشأة طبقة ثرية فى هذه الموانى ،

يقل حماسها للحرب عن قيمتها من الناحية المالية والتجارية .. وكانت عملية وصولهم فى نفس الوقت مخاطرة كبيرة ، وخاصة أمام تعقب السفن المسيحية لهم فى عرض البحر .. وأدى ذلك الى انتشار روح الحماس والجهاد من جديد بين رجال شمال افريقية، وخروجهم على سفنهم فى ذلك الوقت لاستقبال سفن المهاجرين الوافدين ، ولدفع الأذى عنهم ، ولرد العدوان عن بلاد الاسلام .. وكم من معركة وقعت فى ذلك الوقت بين سفن المغاربة وبين سفن المسيحيين ، وهى الفترة التى يسميها الغرب بأنها فترة القرصنة، والتى شارك فيها أبناء شمال افريقية ، وعلى أنها حركة الجهاد البحرى الاسلامى .

ولم تقتصر مشروعات الاسبانيين والبرتغاليين على اجبار الأندلسيين على التحول الى المسيحية ، ولا على محاولة السيطرة على الموارد التجارية التى كانت فى أيدى العرب والمسلمين ، بل لقد تعدتها الى أكثر من ذلك ، وحاولت أن تعمل على احتلال النقط والمراكز الساحلية المغربية ، سواء الواقعة منها على سواحل البحر المتوسط ، أو التى تقع منها على سواحل المحيط الأطلسى .. وشارك فى هذه العملية كل من الاسبانيين والبرتغاليين .. وامتد النشاط الاسبانى على طول سواحل البحر المتوسط ، ومن طنجة الى سبتة ثم الى مليلة ، والى وهران ، ووصلوا حتى الى تونس وطرابلس الغرب ، وذلك فى الوقت الذى امتد فيه نشاط البرتغاليين الى السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسى ، خاصة وأنها كانت تقع على طريق ملاحتهم جنوبا مع السواحل الغربية لافريقية، وعلى طريق رأس الرجاء الصالح ، المؤدية الى مياه الهند .. ويهمنا أن نذكر هنا أن النفوذ الاسبانى ، مع كل ما وصل اليه من قوة وجبروت فى ذلك الوقت ، ومن وصوله حتى العالم الجديد ، قد فشل فى أن يستولى على الميناء الطبيعى لاقليم الريف ، وهو

ميناء الحسيمة ، والذى يقع بين سبتة ومليلة ، والذى ظل بسفنه ورجاله ، يعتبر شوكة تقلق مضاجع الاسبانيين .

ولقد ظل ميناء الحسيمة قاعدة بحرية اسلامية هامة ، تخرج منها سفن المجاهدين لاستقبال ولحراسة سفن المهاجرين الأندلسيين .. وظل هذا الميناء قاعدة بحرية هامة تدفع العدوان المسيحى الاسبانى عن بلاد المغرب كلها .. واشتهر فيه من رجال البحر المجاهدين « الريس يحيى » الذى وصلت سفنه الى السيطرة على الملاحة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، والذى عرف عند الغربيين بأنه « سيد المضيق » .

ولقد عمل الريس يحيى من الحسيمة ، وسجل اسمه فى التاريخ .. ويهمنا هنا أن نذكر أن الحسيمة لا تبعد الا بثمانية كيلومترات عن أجدير ، عاصمة الأمير عبد الكريم الخطابى .. ولا شك أن رجال الريس يحيى ، سيد المضيق ، هم أجداد أولئك الأبطال الذين جاهدوا فيما بعد بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى.. وعلى الطريق المؤدى من شفشاون الى ميناء الحسيمة يمكن للزائر أن يشاهد وعورة الاقليم ، بطرقه العالية التى تسير على ارتفاع شاهق بين غابات الصنوبر والأرز .. وفى وسعه كذلك أن يرى الأهالى يسيرون على جانب هذا الطريق ، وقد اعتادوا على السير ، ويلفون سيقانهم وأرجلهم فى ضمادات من الأقمشة ، ويتسلقون الجبال وينزلونها بمنتهى السهولة ، سواء كانوا من الرجال أو النساء أو الأطفال .. انهم فى معاقلهم على قمم الجبال كالنسور ، يعرفون طرقها ودروبها ، يعيشون فى حرية ، تكون جزءا من حياتهم ، وصفة أساسية فى أخلاقهم ، ولا يفهمون معنى للحياة الا مع الحرية ، ومع العزة والكرامة ، برغم أنهم يكدحون يومهم لكى يكسبوا بعرق جبينهم .. ومع الحرية يعتز أبناء الريف

بالمساواة ، ولا يقدمون عليهم الا من يكبرهم سـنا ، ويعجبون بشجاعته وبحكمته .. وعلى الطريق الذى يستمر فى الهبوط ، يصل السائح الى قرية صغيرة تسمى أچدير ، ومن مشارفها يمكنه أن يشاهد بسهولة خليج الحسيمة وميناءها ، فى أسفل الطريق ، وهو ميناء طبيعى ، يصعب على أجنبى أن يبقى فيه ، ما دامت قمم الجبال فى أيدى الأحرار .

الفصل الثانى

الريف والأطمـــاع الاســـتعمارية

اذا كانت تضاريس الأرض قد أعطت لاقليم الريف مناعة ونوعا من العزلة ، فان ذلك لم يمنع رجال الريف من الاتصال باخوانهم وجيرانهم فى الجزائر فى الشرق ، وفى بقية أقاليم المغرب الأقصى ، الواقعة الى الجنوب من اقليمهم . وكانوا قبل ذلك يكونون جزءا لا يتجزأ من تلك الخلافة الاسلامية الغربية ، خلافة الأندلس ، قبل أن تتفكك هذه الامبراطورية العتيدة ويجبر الزمن رجالهـا على الانسحاب الى ما وراء البحر المتوسط ، ولقد ظلت هذه الصلات الأخوية أو الانسانية تربط رجال الريف باخوانهم وجيرانهم ، برغم أنه يصعب علينا التحدث عن خضوعهم ، وخضـــوع اقليمهم للسلطات ، وللوحدات الادارية الجديدة التى ظهرت بعـد خروج الأندلسيين من ديارهم الى أقاليم المغرب الكبير ، خاصة وأن بلاد المغرب قد انقسمت فى هذه الفترة على نفسها ، وظهر فيها كثير من الوحدات الادارية ، أخذت شكلا اقليميا نتيجة للتفكك ، ولتقهقر الأوضاع فى هذه المنطقة ، ويصعب علينا أن نقول ان الريف قد أصبح جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، أو أنه قد أصبح منضما لسلطات الجزائر ، اذ أن المغرب نفسه كان يشتمل على أكثر من سلطان ، فى فاس وفى مراكش وفى اقليم السوس ، وحتى فيما وراء جبال الأطلس . أما الجزائر فقد ظهرت فيها وحدات متعددة، فى تلمسان وفى قسطنطينة .. واذا كان الاشراف السعديون قد تمكنوا بعد ذلك من توحيد أقاليم المغرب الأقصى ، فانهم قد فشلوا من الناحية العملية فى فرض سلطتهم المباشرة على اقليم الريف

الجبلى ، الوعر المسالك .. وحينما انهارت سلطة السعديين ، وبدأت طلائع أسرة العلويين ، قاد السلاطين الأول لهذه الدولة الجديدة حملات متعددة الى بلاد الريف ، ولكنهم عجزوا كذلك عن اخضاع هذا الاقليم اخضاعا تاما كاملا .

ولقد تمكنت الدول الأوربية فى ذلك الوقت ، وخاصة اسبانيا والبرتغال من احتلال طنجة وسبتة ومليلة وحجر بادس ، وكلها تقع على سواحل الريف ، ومرت مدينة طنجة وسبتة فيما بعد من البرتغال الى انجلترا ، كبائنة فى عملية زواج أحد الأمراء باحدى الأميرات . وجاءت فرنسا بدورها تسعى لدى سلطان المغرب ، لكى تحصل منه على قواعد استراتيجية وبحرية قرب السواحل الشمالية للمغرب .. وكانت أعين فرنسا قد بدأت فى ذلك الوقت فى التوجه صوب الحسيمة وصوب جزر ظفارين .. ولكن هذه المساعى فشلت نتيجة لعدم رغبة السلاطين فى اعطاء امتيازات أجنبية فى البلاد ، ولخوفهم من اتخاذ هذه القواعد مراكز لتهريب الأسلحة والذخائر صوب الداخل ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات وثورات ، وخاصة فى أقاليم لم يكن خضوعها للسلطان الا مؤقتا ، وكان السلطان يقضى معظم أوقاته فيها متنقلا مع حملة كبيرة من الجنود من اقليم لاقليم ، لتدعيم أركان حكمه ، وللتمكن من جمع الضرائب . كان خضوع أبناء الريف اذن للسلطان السعدى أو العلوى هو خضوع اسمى أكثر من كونه فعليا .. وكان رباط الدين والاسلام ، والدعاء لله يوم الجمعة بنصرة السلطان وجيوش المسلمين هى التى توحد وتؤلف بين قلوب أبناء الريف وقلوب أخوانهم أكثر من أى سلطة ادارية أو عسكرية .. وظل أبناء الريف ينزلون من جبالهم ويسيرون شرقا لكى يصلوا الى مشارف فاس ، ويعاونون على العمل فيها .

ولكن علينا أن نذكر أن استمرار اشتراك أبناء الريف فى عملية الجهاز البحرى جعلتهم يتعاونون فى هذا الميدان كثيرا مع

رؤساء البحر الجزائريين ، سواء أكان ذلك فى عهد خير الدين بربا روسا أم فى عهد خلفائه .. وكانوا كرجال بحر يتصلون بذلك الطريق البحرى المؤدى الى الحج ، والذى يسير مع سواحل افريقية الشمالية صوب مصر والمشرق العربى والحجاز .. وكان هذا العامل يقرب بين رجال الريف ورجال الجزائر ورجال المشرق العربى ، وبشكل لا يساعد على ترحيب سلاطين المغرب الأقصى بوجود مثل هذه العلاقة ، خاصة وأنهم كانوا فى منافسة واضحة مع أمراء البحر الجزائريين . ووصلت هذه العلاقة الى عداء غير مستتر بعد انضمام أمراء البحر الجزائريين الى الممالك العثمانية واتحادهم معها ، وبشكل أدى الى وصل السلطات العثمانية الى حدود المغرب الشرقية .

وتظهر لنا علاقة عداء واضحة بين هاتين القوتين الوطنيتين المتنافستين فى الركن الشمالى الغربى لافريقية فى أثناء القرن السادس عشر ، وهما القوة البرية التى نمت داخل اقليم المغرب الأقصى عند فاس ومراكش ، والقوة البحرية التى كانت تعمل من الموانى ، سواء من الجزائر أو من اقليم الريف ، وفى اتحاد وتكامل مع القوة العثمانية فى شرقى البحر المتوسط . ولقد أدت هذه العلاقة الى محاولات قام بها بعض سلاطين المغرب لفرض سيطرتهم التامة على اقليم الريف ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، وحاولوا غزو الجزائر ، مبتدئين فى ذلك بمدينة تلمسان .. وقامت محاولات أخرى من جانب الجزائريين ، هدفت الوصول الى السيطرة على اقليم المغرب الأقصى وضمه الى بقية الممالك الاسلامية العثمانية .. ولكن هذا الصراع الاقليمى انتهى بعقد اتفاق لتحديد الحدود بين الأقاليم العثمانية ، وبلاد العلويين ، وبشكل ترك تلمسان داخل حدود الجزائر ، وترك وجدة لرجال المغرب الأقصى .

وفى أثناء كفاح السلطنة المغربية ضد القوى الاستعمارية

لتحرير سواحلها من الاحتلال الأجنبى كانت أنظار المغرب تتجه الى السواحل المطلة على المحيط الأطلسى أكثر من اتجاهها الى السواحل المطلة على البحر المتوسط .. ولقد استتبعت هذه العلاقات المغربية الأوربية عقد اتفاقيات بين الطرفين ، نصت على وقف القتال أو الصلح ، وتبادل التجارة .. وكان من الصعب على سلطان المغرب ، بعد توقيع الصلح مع احدى الدول الأوربية أن يجد رجال الريف والمجاهدون البحريين فيها يواصلون هجماتهم وعملياتهم ، وكأنهم يمثلون قوة مستقلة فى اقليمهم .. واضطر ذلك سلاطين المغرب الى أن يحاولوا تركيز السلطة فى أيديهم ، وفرض حكمهم الفعلى على منطقة الريف ، حتى تكون العملية واحدة ، وتحت قيادة واحدة ، وفى توافق بين أجزائها.. وكان من الصعب على رجال الريف أن يتخلوا عن عملية جهادهم البحرى وأن ينسحبوا من معركة شاركوا فيها اخوانهم امراء البحر الجزائريين .. وكان استخدام القوة ، مع اختلاف هدف كل قيادة عن هدف القيادة الأخرى ، فى الريف وفى بقية أقاليم المغرب الأقصى ، علاوة على الأوضاع الجغرافية ، وطبيعة تكوين العناصر فى كل اقليم – كان كل ذلك لا يساعد على نشأة وحدة فعلية ، خاصة وأن رجال الريف كانوا لا يقبلون الخضوع للقوة. ولذلك فان وحدة اقليم الريف مع بقية أقاليم المغرب الأقصى كانت وحدة اسلامية ، وتدخل تحت عنوان الرابطة الاسلامية أكثر من دخولها تحت اسم الوحدة أو حتى الاتحاد .. وجاء ضعف السلطة المركزية فى المغرب الأقصى ، بعد عصر المولى اسماعيل والمولى محمد بن عبد الله ، مع صعوبة المواصلات ، وضعف الامكانيات ، لكى تؤدى الى تفكك هذه السلطنة المغربية ، وفى ضعف ، وبشكل يسمح بقلة امتداد أى سلطة مغربية داخل اقليم الريف ، الا بالود والاحسان .

وأدى ذلك الى أن يتولى رجال الريف أمور اقليمهم بأنفسهم ،

حتى وان كان القانون الدولى لم يعترف لهم بمثل هذه الوضعية .

ولقد تطورت الأوضاع فى المغرب الأقصى بعد عصر المولى محمد بن عبد الله ، وفى شكل تقهقر واضح بالنسبة للقوى الوطنية ، وخاصة فى وقت زادت فيه الأطماع الاستعمارية حول هذه البلاد .. ويمكننا أن نقول ، بدون خطأ كبير ، ان العلاقة بين السلطات الوطنية فى المغرب ، والقوى الاستعمارية المجاورة ، كانت تعتبر داخل نطاق الانسانية صراعا واضحا بين نظام قديم ، غلب عليه الشكل الاقطاعى ، ونظام حديث متطور ، اعتمد على رأس المال ، وبدأ النزول الى ميدان الصناعة ، بما تحتاج اليه من مواد خام وأسواق للتوزيع .. واذا كانت الدول الاستعمارية قد بدأت فى زيادة اهتمامها بالأقاليم المغربية فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وعلى أساس كونها تشتمل على سواحل وعلى قواعد استراتيجية هامة ، تخدم الدول الأوربية فى صراعها مع بعضها ، فان ذلك لم يمنع من بقاء عدد من قواعد المغرب فى أيدى الاسبانيين كما أنه لا ينفى أهمية العامل الاقتصادى فى العلاقات المغربية الأوربية .. وكان المغرب يعتمد أساسا على انتاج المواد الزراعية والحيوانية ، أى يعتمد على الأرض ، وغلة الأرض ، وما يعيش على الأرض من نبات وحيوان وانسان ، وذلك فى الوقت الذى كانت دول أوربا تعتمد فيه على التجارة ، وبدأت فى النزول الى ميدان الصناعة .. كانت أهم موارد المغرب هى القمح والصوف والجلود ، ولكنه كان يحتاج الى الأدوات المصنوعة والى الأنسجة والى الشاى والسكر .. وأن نظرة واحدة لعملية التبادل التجارى هذه لتثبت أنها عملية تبادل بين نظام يعتمد على الاقطاع ، ونظام رأسمالى يعتمد على التجارة والصناعة .. ومع تزايد حاجة المغرب الى المنسوجات والى السكر والشاى ، زاد اعتماده على الدول الأوربية الغربية ، وذلك فى الفترة التى انخفضت

فيها أسعار المنتجات الزراعيـــة ، وزادت فيها أســعار المواد المصنوعة .. وبدت هذه العملية فى غير صالح المغرب ، ولحساب الدول الأوربية ، وهى استعمارية .. ومع تزايد المصالح الأوربية فى المغرب ، وزيادة اعتماده على الأوربيين ، سار ميزان الاقتصاد فى صالح الأجانب ، وضد مصلحة البلاد .. واحتاج السلطان الى تكوين قوات محاربة تساعده على استتباب الأمن وجمع الضرائب، فزاد اعتماده على الدول الأوربية التى يمكنها أن تزوده بالبنادق وبالبارود ، وفى نفس الوقت الذى زادت فيه الضرائب ثقلا فى كل يوم على كاهل المغاربة .

وكان من الطبيعى أن يحاول المغرب تجديد نظمه ، وأن يسير على طريقة حديثة ، فاحتاج فى ذلك الى رءوس أموال أوربية ، وبدأ فى الدخول فى مشكلة الديون الأجنبية .

انه صراع بين قديم وحـــــديث ، مهما اختلفت العناصر أو الوحدات أو المواقف التى تشترك فى هذه العملية .. وعلينا أن ننظر اليها فى نطاق يتسع لأكثر من حاكم ، ولأكثر من عصر ، حتى لا تفلت منا الخطوط العامة لتطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى تلك الفترة من تاريخ المغرب .

ولقد حدثت هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية فى الوقت الذى قامت فيه فرنسا بثورتها البورجوازية ، وعملت على القضاء على الاقطاع .. وشاهد المغرب فى السنوات التالية تفاعلا «مماثلا» بين الجزائر واحدى الدول الأوربية ، وهى فرنسا ، وعلى أسس اقتصادية مماثلة ، وانتهى الأمر بنزول القوات الفرنسية لاحتلال مدينة الجزائر فى سنة ١٨٣٠ .. واذا كان المغرب الأقصى قد وقف الى جانب المجاهدين الجزائريين ، أو تخلى عنهم ، نتيجة لضعفه فى عصر المولى عبد الرحمن ، والضغط الفرنسى الذى وقع عليه ، فان ذلك لم يمنع من انحسار قوة وسلطة وحيوية القوى الاقطاعية التى كانت تتحكم فى أقاليم شمال افريقية فى ذلك الوقت ، وامتدت

سلطة القوى الاستعمارية على هـــذه المناطق .. وانتهى الأمر بالمغرب الأقصى الى أن يجد نفسه مجاورا لسلطات استعمارية فرنسية فى الجزائر .

لقد كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية هى أساس تخلى المولى عبد الرحمن عن رجال الأمير عبد القادر الجزائرى ، وهم فى كفاحهم ضد قوات الاحتلال الأجنبية .. ولكن ، هل يوافق أحرار المغرب وخاصة فى الشمال ، على مثل هذا التراجع ، أو على الاعتراف بسلطة فرنسا فى الجزائر ، وهم المكافحون والمجاهدون من أجل الاسلام ؟ واذا كانت معاهدة تافنا قد حددت الحدود بين المغرب الأقصى والجزائر الفرنسية ، وعلى امتداد مائة وخمسين كيلو مترا من ساحل البحر المتوسط حتى تنية الساسى ، فالواقع أن هذه المعاهدة لم تكن ملزمة الا لسلطان المغـرب وللسـلطات الفرنسية فى الجزائر ، اذ أن عددا من رجال الريف ظـل يساعد الأمير عبد القادر الجزائرى ؛ وحين استتب الأمر للفرنسيين نهائيا كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية هى التى توجه عددا من أبناء الريف الى الاستمرار فى النزول من جبالهم ، والسير صـوب الشرق حتى الجزائر ، لكى يساعدوا الجزائريين فى حصاد القمح ، ويعملوا فى مزارع الفرنسيين الجديدة ، ويجنوا العنب ؛ وان كان ذلك لا يعنى أن الأحرار فى الريف كانوا يعترفون بسلطة الفرنسيين فى الجزائر ؛ اذ أنهم كانوا لا يعترفون بأى ساطة فى اقليمهم الا لتلك القيادة التى يقومون باختيارها بأنفسهم ، وعلى أساس الديموقراطية وعلى أساس الحرية .

وتزايدت المصالح الفرنسية فى اقليم المغرب الأقصى ، وتزايدت معها الأطماع الفرنسية فى هذا الاقليم .. وأصبح طريق المواصلات المؤدى من تلمسان الى وجدة وفاس ، وبعد ذلك صوب المهدية والرباط والدار البيضاء ، طريقا أساسيا للتعامل التجـارى .. وزادت أهمية رءوس الأموال الفرنسية فى الدار البيضاء عن رءوس

الأموال البريطانية فى طنجة ، والأهمية الاقتصادية للأسبانيين فى تطوان . واذا كانت اسبانيا قد أجبرت المغرب على دفع غرامة حربية كبيرة لها بعد حربها معها سنة ١٨٦٨ فان هذا العامل نفسه قد أجبر الفرنسيين على الالتجاء الى أســـواق رءوس الأموال الأوربية ، وخاصة فى باريس ، للتعاقد على القرض اللازم لسداد هذه الغرامة .. ومع نهاية القرن التاسع عشر ، واحتياج ألمانيا الى أسواق جديدة لتوزيع منتجاتها ، وموارد جديدة للمواد الخام ، أخذت المصالح الألمانية ، وبالتالى النفوذ الألمانى ، فى التزايد فى اقليم المغرب الأقصى ، وبشكل يقربه من المصالح ومن الأطماع الفرنسية هناك .. ولكن انجلترا ذات المصالح المتفوقة فى طنجة ، والتى تواجه جبل طارق ، لم تكن لتقبل رؤية تفوق النفوذ الألمانى هناك على النفوذ الفرنسى ، خاصة وأنها كانت من ناحية تخشى من سيطرة ألمانيا على القارة الأوربية ، وكانت من ناحية أخرى قد تمكنت من تصفية المشكلات الفرنسية الانجليزية المتعلقة بالميدان الاستعمارى فى افريقية ، بعد حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ .. ولكن بريطانيـــا كانت من ناحية أخرى لا تقبل تفوق النفوذ الفرنسى فى المغرب ، وبشكل يسمح لفرنسا بالسيطرة على هذا الاقليم ، والسيطرة بالتالى على الملاحة فى مضيق جبل طارق ؛ ولذلك فان بريطانيا لم توافق على امتداد النفوذ والمصالح الفرنسية فى منطقـــة مضيق جبل طارق ، وبالتالى فى المنطقة الشمالية من المغــرب الأقصى ، والتى تطل على البحر المتوسط ، منطقة الريف .. ومع التمهيد لعقد الاتفاق مع أسبانيا . فرضت بريطانيا على فرنسا أن تترك لاسبانيا منطقة شمال المغرب الأقصى كمنطقة نفوذ ، وأن يوضع نظام دولى لمنطقة طنجة ؛ اما بقية المغرب الأقصى فيمكن لفرنسا أن تتوسع فيه ، ودون معارضة بريطانيا ، وفى نظير « مقايضة » بعدم معارضة الفرنسيين للنفوذ البريطانى فى مصر .

كان هذا هو أساس الاتفاق الودى الذى تم بين رجال السياسة

الأوربيين فى السنوات الأولى من القرن العشرين .. واذا كان قد انتهى فى سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الفرنسى البريطانى ، فان فرنسا كانت قد اتخذت المغرب الأقصى وسيلة للمقايضة مع ايطاليا فى سنة ١٩٠٢ وعلى أساس عدم معارضة الفرنسيين لزيادة النفوذ الايطالى فى طرابلس الغرب وبرقة ، وفى نظير عدم معارضة الايطاليين لامتداد النفوذ الفرنسى فى المغرب الأقصى .. وبعد الاتفاق الودى ، وبتوجيه من بريطانيا ، وأمام خطر المنافسة الألمانية ، اتفقت فرنسا مع اسبانيا على أن تترك لها المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى كمنطقة نفوذ .. وتمت بذلك حلقات الاتفاق بين دول الوفاق .. تمت بين العواصم الأوربية ، وان كانت قد اضطرت الى اجتياز عقبات سياسية أخذت شكل مؤتمرات دولية ، أو تهديد بوقوع حرب عالمية ، مع مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦ ، وأزمة أغادير سنة ١٩١١

دار كل ذلك بين العواصم الأوربية ، ولم تنجح المحاولات التى قامت بها السلطة الفعلية للمحافظة على استقلال البلاد .. واذا كان المولى عبد العزيز قد اضطر الى التخلى عن السلطنة ، فان المولى عبد الحفيظ الذى تسلم الحكم بعده وعلى أساس منع الأجانب من احتلال البلاد ، قد اضطر كذلك الى التنازل عن السلطنة بعد أن ثارت عليه القبائل ، وأجبره الفرنسيون على التوقيع على معاهدة الحماية سنة ١٩١٢ .

ولكن اذا كانت السلطة الفعلية فى المغرب الأقصى قد عجزت عن مواجهة مؤامرات الاستعمار العسكرية والاقتصادية ، فان ذلك لم يمنع من ظهور قيادات جديدة فى الميدان ، عملت وجاهدت من أجل الاحتفاظ باستقلال البلاد .. واذا كانت القوات قد سارت فى ذلك الوقت من الدار البيضاء ومن وجدة ، ووصلت الى فاس ، فان ذلك لم يمنع من ظهور حركات تحرير فى منطقة

الأطلسى المتوسط والأطلسى الأعلى وبلاد السويس ، وحتى فيما وراء الأطلسى وفى صحراء الجنوب .. وكانت كل هـــذه الأقاليم تخضع للسلطة المغربية أكثر من خضوع بلاد الريف لها ، وتعترف بهذه السلطة المركزية أكثر من اعتراف أحرار الريف بها .. واذا كانت فرنسا قد بدأت عملياتها بقوات موجودة بالفعل على ذلك المحور الممتد من وجدة حتى الدار البيضاء . فان منطقة الريف كانت فى وضعية مختلفة ، اذ أن اســـبانيا لم تكن قد تمكنت فى ذلك الوقت من التوغل من قواعدها الاستراتيجية فى سبتة ومليلة صوب الداخل .. واذا كانت اسبانيا قد حصلت على حق بارسال قوات لها الى مدينة العرائش فان وضعيتها كانت تختلف تمام الاختلاف عن وضعية القوات الفرنسية فى المغرب الأقصى .

وكانت فرنسا تحتل طرق المواصلات الأساسية الموجودة وسط منطقة نفوذها ، أما اسبانيا فكانت تركز قواتها داخـــل قواعدها الواقعة على الساحل . وكان عليها أن تبدأ بعد ذلك فى التوغل فى الاقليم حتى تتمكن قوتها من فرض سيطرتها عليه . وعلينا أن نذكر أن فرنسا كانت فى ذلك الوقت فى أوج قوتها وعظمتها الاستعمارية، سواء أكان ذلك من الناحية المادية الاقتصادية ، أم الناحية المعنوية والفكرية ؛ أما اسبانيا فكانت قد بدأت فى الدخول فى فترة انهيارها وضعفها ، وشهدت السنوات الأخيرة فى القرن التاسع عشر فقدها لكوبا والفلبين فى حربها ضد الولايات المتحدة الأمريكية .. وأخيرا وليس آخرا فقد كان على اسبانيا أن تواجه رجالا يعيشـــون فى الجبـــال ، ويعرفون بلادهم ، ولا يعرفون فى الحق مفاوضـــة ولا مساومة ، ولم يخضعوا لما خضع له الآخرون . وكانت هذه العوامل مجتمعة هى أساس تلك الملحمة التى ستقع بين رجال الريف وبين الاسبانيين ، والتى سيفتخر بها العـــالم العربى والاسلامى ، كدرة من الدرر النادرة فى تاريخه المعاصر ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى .

الفصل الثالث

أسرة الأمير وتكوينه الأول

في الوقت الذى تنحدر فيه سـفوح جبال الريف انحدارا شديدا صوب البحر المتوسط فى الشمال ، تنحدر فيه انحدارا بسيطا الى جنوب طنجة وصوب المحيط الأطلسى .. ومعنى ذلك أن المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى يمكن تقسيمها الى قسمين : القسم الشمالى الممتد من مليلة الى سبتة ، والجزء الغربى الممتد من طنجة جنوبا حتى العرائش .. وكانت هذه المنطقة هى التى تخص اسبانيا ، وبصفتها منطقة نفوذ لها ، مع تقسيم سلطنة المغرب الأقصى الى منطقتى نفوذ ، مع الاتفاقيات الثنائية التى بدأت بين الدول الأوربية الاستعمارية منذ سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٤ وتدعمت نهائيا بمعاهدة الحماية سنة ١٩١٣ .

كان الأهالى فى هذين القسـمين الداخلين فى منطقة النفوذ الأسبانى يختلفون فى كل قسم عنهم فى القسم الآخر ، وفى بعض الصفات ، وان كانوا يتشابهون فى حبهم للحرية ، وفى عشقهم لها .

كانت منطقة « الجبالا » التى تقع الى الغرب والى الجنوب من طنجة قد تأثرت بالعرب نتيجة لقلة التضاريس ، وقلة صـعوبة المواصلات فيها ، ونتيجة لقرب أهلها من مراكز الثقافة العربية فى سهول الغرب المطلة على المحيط الأطلسى .. أما منطقة «الريف» والتى كانت تقع الى شرق المنطقة الأولى ، وتمتد فيها سلاسل الجبال الشاهقة ، فقد ظل أبناؤها يحتفظون بلغتهم البربرية ، رغم اعتزازهم بالاسلام .

ولقد عرفت قبائل الريف منذ فجر التاريخ باسم الأمازيغ ، وتمكنت من الاحتفاظ باستقلالها حتى فى ذلك الوقت الذى خضعت فيه كل من اسبانيا وطنجة والجزائر لحكم الأمبراطورية الرومانية القديمة .. ورغم اصرار الحكومة المغربية على سيادتها على منطقة الريف ، فان هذه السيادة كانت اسمية ، ولم تتعرض فى كثير أو قليل للاستقلال الفعلى لشعب هذا الاقليم . ولقد اشتهر اقليم الريف بحبه للكفاح والجهاد ، وكان هو الاقليم الذى يواجه الخطر الأوربى الزاحف على بلاد المغرب كلها .

وكانت قبيلة « بنووورياغل » والتى تعتبر أكبر واشهر قبائل الريف ، تسكن الاقليم المواجه لميناء الحسيمة ، وساعدها ذلك على أن تصبح أكثر من غيرها تفتحا للآراء الغربية ، وأكثر من غيرها قوة ، نتيجة لامتلاكها الأراضى الزراعية ، وكان وجود ميناء الحسيمة فى أيدى رجال الريف ، وتمكنهم من الاحتفاظ به نافذة حرة مفتوحة على العالم ، يزيد من قوة هذه القبيلة ومن أهميتها ، وخاصة فى علاقتها بالخارج ، وفى تمكنها من الاحتفاظ بحريتها واستقلالها .

وكانت قبيلة بنووورياغل قد اختارت الأمير عبد الكريم الخطابى رئيسا لها فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكان يمتاز بالحكمة والحزم فى نفس الوقت الذى امتاز فيه بالتفتح للآراء الغربية ، وكان يمتاز بالحكمة والحزم ، ورغبته فى التقدم بالبلاد . وهو ينتسب الى عمر بن الخطاب ، ثانى الخلفاء الراشدين ، وممثل العدالة والحق فى تاريخ الدولة العربية .. وهذا الأمير هو والد صاحب الترجمة ، ولا شك أن هذا الشبل قد جاء من هذا الأسد .. وسيتعلم الأمير عبد الكريم الابن ، من والده عبد الكريم الخطابى الأب ، كثيرا من شئون الادارة والسياسة والحكم ، والتعامل مع الأهالى ، والتعامل مع الأجانب ، كما سيتعلم منه

ـ ومنذ صغره ـ معنى الحق ، ومعنى العدل ، ومعنى الحرية ، وكيفية ممارسة الاستقلال والمحافظة عليه .

كانت هذه القيادة هى أكبر قيادة تسيطر على قلب اقليم الريف ، خاصة وأنها كانت تعتز بنفسها وبرجالها وبالاسلام الذى لا يعرف فى الحق اثنين .. أما الى الغرب من هذه المنطقة فقد كانت هناك قيادة أخرى هى قيادة « الريسولى » فى منطقة الجبالا ، وكانت هذه القيادة تعتمد على صلات اقطاعية مع الأهالى ، وعلى امتيازات وحقوق للأمير الشريف على رعيته التى كان يستغلها ، باسم الدين ، وباسم ممتلكاته العقارية الكبيرة ، لكى يحصل منها على كل ما يمكنه أن يحصل عليه .. ولذلك فان التجاوب بين كل من الأهالى والقيادة فى كل من هاتين القيادتين تأثر بالأهالى من ناحية ، وبالقوى الأجنبية من ناحية أخرى ؛ وخاصة فى وقت امتداد النفوذ الاسبانى صوب الداخل ؛ كما أثر على علاقة كل منها بالأخرى ، وان كان ذلك لن يتم بشكل واضح متبلور الا فى العشرينات ، وبعد انشاء « جمهورية » الريف .

ولقد شاهد الأمير عبد الكريم الخطابى الأب حضور بعض المستكشفين الأوربيين الى منطقته للتنقيب عن الثروة المعدنية .. وأدى تنافس هؤلاء المستكشفين الى زيادة اهتمام السلطات المغربية الحاكمة بسيادتها على هذه المنطقة ، حتى وان كانت هذه السيادة اسمية .. ولقد جاءت الاتفاقات الفرنسية الأسبانية فى ٣ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٢ لكى تضع هذه السيادة الاسمية لسلطان المغرب ، وطبقا لألقابه التقليدية فى المنطقة ، تحت الحماية الاسبانية .

وكان اخوان مانسمان الألمان هم أول المستكشفين الأوربيين الذين وصلوا الى تلك المنطقة ، واتصلوا برأس الأسرة الحاكمة فى القبيلة ، وهو الأمير عبد الكريم الخطابى الأب ، اذ أنه لم يكن فى

وسعهم البدء بأعمال التنقيب دون مساعدته ، وهو سيد البلاد .. ثم اتصلوا بعد ذلك بالسلطان المغربى فى سنة ١٩٠٩ ، حتى يعملوا على تقوية مركزهم من الناحية القانونية ، وحاولوا أن يحصلوا منه على عقد امتياز لاستغلال مناجم المنطقة .. ثم حاولوا بعد اعلان الحماية الأسبانية بالاتفاق الفرنسى الأسبانى فى ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٢ أن يصلوا الى اتفاق مع اسبانيا .. ولكنهم وجدوا اسبانيا عاجزة عن مد سلطتها الفعلية على بلاد الريف ، وعاجزة بالتالى عن اعطاء أى تسهيلات لاستغلال الموارد الاقتصادية للاقليم .. فاقترحوا عليها انشاء شركة استغلال استعمارى ، يقومون بتكوينها ، معتمدين فى ذلك على صلاتهم بالشيوخ والرؤساء الوطنيين ، ولفتح بلاد الريف والجبالا للاستغلال الاقتصادى الأوربى .. ولكن الحكومة الاسبانية رفضت هذا المشروع .

ولم تكن فرنسا تنظر بعين الارتياح الى نشاط هؤلاء المستكشفين الأوربيين الألمان فى منطقة الريف . وكانت اتفاقياتها مع ألمانيا فى سنة ١٩٠٩ تسمح لها بالحصول على أولوية فى عمليات التنقيب وعمليات الاستثمار فى المغرب .. فقام سلطان المغرب ، وبايعاز من فرنسا ، وهى الدولة الحامية فى ذلك الوقت ، وباصدار مرسومين فى ١٩ ، ٢٠ من يناير سنة ١٩١٤ ، وطبقا للمادة ١١٢ من اتفاقية الجزيرة الخضراء ، المعقودة فى ٧ من أبريل سنة ١٩٠٦ ، لتكوين لجنة تحكيم للفصل فى الادعاءات والمنازعات المتعلقة باستغلال الثروة المعدنية والمناجم فى السلطنة الشرقية .. والمهم هو أن الحرب العالمية الأولى قد عملت على تعطيل لجنة التحكيم ، التى لم تستأنف نشاطها الا بعد نهاية هذه الحرب ، وانتهت منها فى أول يونيو سنة ١٩٢٢ ، وحكمت ببطلان السند القانونى لعقود اخوان مانسمان ، سواء فى منطقة الحماية الاسبانية ، أو فى منطقة الحماية الفرنسية .. وكان ذلك أمرا طبيعيا ، خاصة وأن نهاية الحرب العالمية الأولى كانت قد وضعت

أسسا لتصفية الامبراطورية الألمانية نفسها فيما وراء البحار .. وكان من المنطق أن تصفى عمليات الاستغلال الألمانى الاقتصادى ، وفى صالح دول الحلفاء المنتصرة ، سواء كان ذلك فى المغرب ، أم مع سكة حديد بغداد ، أو فى نصيب الألمان فى بترول الموصل .. وكان الألمان يدركون قبل صدور قرار التحكيم بأن هزيمة بلادهم فى الحرب ستعرقل كل نشاط لهم فى منطقة تزايد فيها النفوذ الفرنسى ، فانسحبوا من الميدان .. وقام احد رجال الأعمال الأسبانيين ، وهو ايشيفاريتا دى بالباو بتبنى هذا المشروع .. وسواء أكان على اتفاق سابق مع الشركة الألمانية ، أم أنه قد استفاد من نتائج أبحاث رجالها ، فانه قد ورث عنها صلاتهم الطيبة بأسرة الخطابى . وكان نوابه يفاوضون مع محمد بن عبد الكريم الخطابى فى الوقت الذى بدأ فيه الجنرال سيلفستر زحفه الفاشل على أنوال فى يوليو سنة ١٩٢١ . وجاءت العمليات الحربية لكى توقف كل نشاط اقتصادى ممكن للاسبانيين فى الريف .

كان هذا هو مجمل علاقات اقليم الريف الخارجية بالألمان والأسبانيين والفرنسيين ، منذ السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى .. ولا شك أن كل ذلك قد أثر فى القيادة الوطنية الموجودة فى الاقليم .

وشعر الأمير عبد الكريم الخطابى الأب بأن قبيلته تمتلك فى أرضها موارد اقتصادية هامة ، اذ أن هذه البلاد تشتمل على ثروة كبيرة من خام الحديد .. ودفعه ذلك الى الشعور من ناحية بضرورة زيادة تمسكه باستقلاله ، ودفعه من ناحية أخرى الى محاولة اقتباس العلوم الغربية ، ودون أن يؤثر ذلك فى شخصية بلاده وفى مقومات أهلها .

واختار الأمير اسبانيا كدولة يمكنه أن يتعامل معها ، واختارها نتيجة لقربها من اقليمه ، ونتيجة لتقارب عادات وأخلاق أهلها

مع عادات وأخلاق رجاله .. ولكن هذا التعاون كان يهدف صالح الطرفين ، مع احتفاظه بحريته وسيادته ، والمحافظة للاقليم على عاداته وتقاليده وقوانينه .

وأرسل الأمير عبد الكريم الخطابى الأب ابنه الأصغر ، سى محمد الخطابى الى ملقة فى اسبانيا للدراسة ، ثم أرسله بعد ذلك الى مدريد للتخصص فى هندسة المناجم والتعدين .. وكان ذلك يدل على أن الأمير كان يرغب فى الاشراف على عملية استغلال الثروة المعدنية الموجودة فى بلاده ، والاشراف على العملية من قرب . أما ابنه الأكبر ، سى محمد عبد الكريم ، والذى سيخلفه فى الحكم فيما بعد ، وسيصبح قائد الثوار ورئيس جمهورية الريف، فان والده قد أرسله لدراسة العلوم العربية والدينية فى فاس ، وخاصة الشريعة والفقه .. ولقد استقر الأمير عبد الكريم الابن بعد ذلك فى مليلة ، واشتغل بالقضاء الشرعى ، وفى نفس الوقت الذى عمل فيه على التحرير فى جريدة « تلغراف الريف » وعمل كذلك كمستشار للسلطات الاسبانية فى الشئون العربية .

ولقد ساعدت دراسة الأمير ، سواء فى أسرته وفى اقليمه فى أول الأمر ، أو فى فاس بعد ذلك ، وهى مركز حركة الثقافة العربية الاسلامية فى المغرب الأقصى ، واحتكاكه بالاسبانيين ، وعمله فى الصحافة . ساعد كل ذلك على تكوين شخصية الأمير ، وتكوين رجل الريف الذى سينجح فى تسجيل اسمه بحروف من نار فى سجل كفاح العرب ضد الاستعمار .

ولقد انقطعت العلاقات بين الأمير عبد الكريم الخطابى وبين السلطات الاسبانية بعد فترة من الزمن نتيجة لسير الأسبانيين على سياسة تتعارض مع تلك التى صمم الوطنيون على السير عليها .

وأصابت عبد الكريم الخطابى خيبة فى آماله بعد اعلان الحماية الاسبانية على شمال المغرب ، وبعد معرفته للضباط الاسبانيين الذين جاءوا يمثلون بلادهم فى هذه المنطقة .. واشتكى فى سنة

١٩١٥ الى كل من الحكومتين المغربية والاسبانية ، وكان الرد عليه هو الاتصال فى كل ذلك بالجنرال خوردانا jordana المندوب السامى الاسبانى . وأصدر هذا الجنرال أمره الى الأمير الشيخ بالحضور لتقديم فروض الطاعة والولاء فى الحسيمة ، فرفض الشيخ ، فأمر الجنرال بالقاء القبض على ابنه فى مليلة ، والقائه فى السجن .. وبقى الأمير عبد الكريم الابن فى السجن أحد عشر شهرا ، ثم أخلى سبيله لكى يوضع تحت المراقبة مدة ستة شهور أخرى ، بدعوة تعديه على أحد ضباط الشرطة الاسبانيين .

ولقد انتظر الشيخ حتى الافراج عن ابنه الأكبر ، وعودة ابنه الثانى من مدريد . وما أن وصلا الى أجدير حتى أعلن القطيعة بينه وبين الاسبانيين .

ولقد حاول بعض الأساتذة الاسبانيين دعوة محمد بن عبد الكريم للعودة الى مدريد ، ولكنه شرح لهم الحالة الموجودة فى بلاده ، وسوء تصرف السلطات الاسبانية وانتهاكها للبلاد ، وانتشار اليأس بين رجال القبائل ، وضرورة تغيير أسبانيا لسياستها التى لن تنتهى الا بالحرب . ولم يستلم الأمير أى رد على خطاباته ، وعلم فيما بعد أن الحكومة الاسبانية قد أرسلت نسخا منها الى قوائدها العسكريين فى مليلة وتطوان .. وكان معنى ذلك أنها قد أخذت تنظر اليه بعين الاعتبار ، ولكن على أساس أنه عدو مناوىء.

وصمم عبد الكريم الخطابى على المقاومة ، وعلى ضرورة الوصول الى اخراج الاسبانيين من البلاد ، فأخذ فى تجميع الرجال، واستعد للقيام بعمليات منظمة .. وحين احتل الاسبانيون تافارسيت فى أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وتقع فى أعالى نهر القرط ، وعلى الطريق الموصل من مليلة الى الحسيمة ، قام على رأس قوة من رجاله لمهاجمتهم .. ولكنه توفى فى أثناء الزحف .. فقرر ابنه الأكبر ، وهو الذى خلفه فى قيادة القبيلة ــ بالاتفاق مع أخيه

الأصغر ، وعمه عبد السلام الخطابى ـ قرر بالاتفـــاق معهم أن يستمروا فى عمليات الجهاد ، ويخرجوا الاسبانيين من البلاد .. واذا كانت عملياتهم الأولى قد ظهرت وكأنهم يحاولون فيها أن يقفوا على الحياد تجاه النشاط الاسبانى فى أراضى القبائل المحيطة بهم ، والامتناع عن تشجيع القبائل الأخرى على الخروج عن طاعة الاسبانيين ، الا أن هذا الموقف قد تغير نتيجـة لزحف الجنرال سيلفستر ، القائد الاسبانى لقطاع مليلة ، وتقدمه فى سنة ١٩٢١ على رأس قواته صوب الداخل .

ولقد أثبت الأمير عبد الكريم الخطابى الشاب فى عمليـــاته الحربية ، وفى ادارته للاقليم ، وعلاقاته بالخارج ، انه قائد ومنظم ورجل دولة ، قل أن يشهد العالم مثله الكثير .

الفصل الرابع

زحف الاسبانيين

كانت الاتفاقيات الدولية تعطى لاسبانيا من ناحية القانون الدولى اعترافا بمنطقة نفوذها فى شمال المغرب الأقصى ، وعلى منطقة الريف .. ولكن اسبانيا احتاجت الى مد منطقة احتلالها الفعلى ، من قواعدها المختلفة الموجودة على الساحل الافريقى صوب الداخل ، حتى تصل الى ممارسة نفوذها الفعلى هناك .. وكان عليها أن تقوم بعمليات حربية للقضاء على القوات الوطنية ، كخطوة أولى تمهد لاقامة ادارة لها فى المنطقة .. ولم تكن هذه العمليات الحربية سهلة أمام اسبانيا ، رغم امكانياتها البشرية والعسكرية ، والحربية والمالية فى ذلك الوقت ، خاصة وأن طبيعة بلاد الريف ، وطبيعة رجالها ، كانت عقبات واضحة تصعب على الاسبانيين أمر فرض نفوذهم الفعلى على هذه المنطقة .. وجاءت أحوال اسبانيا والاسبانيين أنفسهم ، والمتناقضات الموجودة عندهم فى ذلك الوقت ، عوامل جديدة تزيد من الصعوبات التى تواجه هذه العملية ، وتصل بها الى مرحلة المغامرة ؛ ولكى تثبت فشل مثل هؤلاء الرجال فى القيام بمثل هذا العمل ، فى مثل هذه المنطقة فى ذلك الوقت .. وواجهت القوات الاسبانية هناك رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصمموا على الجهاد .. وكانوا رجال الريف ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى .

كانت اسبانيا فى ذلك الوقت قد خضعت لسيطرة تامة وواضحة لعدد من الضباط والعسكريين ، الذين فرضوا أنفسهم على الحياة العامة فى بلادهم ، وحاولوا أن يفرضوا أنفسهم وطريقتهم على سياسة اسبانيا الخارجية ، ويسيطروا بنفس الطريقة على منطقة نفوذهم التى اعترفت الدول بها لاسبانيا فى شمال المغرب

الأقصى .. ورغم العزة والافتخار التى كانت تملأ قلوب وعقول هؤلاء الرجال ، فانهم كانوا قد أثبتوا عمليا عـــدم صلاحيتهم فى الحرب ، وعدم صــــلاحيتهم فى السلم ، وفشلهم فى مشروعات استعمارية امتلأت بالمتناقضات ، واختلطت فيها العناصر النفسية والمعنوية بالاستراتيجية والتكنيك العسكرى .

ولا شك فى أن شعور هؤلاء الضباط والعسكريين بضحالتهم وضعفهم قد انعكس وتبلور فى شكل صرامة واستخدام للقوة ، دون دراية بطريقة استخدامها ، والوقت اللازم لذلك . وكانت هناك عناصر عسكرية أخرى موجـــودة ذلك الوقت فى المغرب الأقصى ، وهى القوات العسكرية الفرنسية ، فى منطقة الحماية الفرنسية . وكانت هذه العناصر قد تمكنت باستنادها الى القوة الفعلية ، الاقتصادية والحربية ، من أن تســتفيد من الظروف والمواقف السياسية ، لكى تفرض نفسها على منطقــة نفوذها ، وتسيطر عليها .

وكانت هذه العناصر الفرنسية قد عملت باسم القيادة الوطنية الموجودة ، وباسم سلطان المغرب ، وادعت أنها تخضع البلاد له ولسلطته ، وتقوم بهذه العملية لحسابه ، وتحمى بذلك المصالح الاستعمارية والتجارية للاوربيين هناك .. وكانت قد عملت باسم « الحماية » وطبقتها ، واعتمدت على رجال وقادة وطنيين ، لهم قيمتهم فى تثبيت أقدام نظام الحكم الجديد فى المنطقة ؛ وظهر من أول نظرة وكان نظام الحماية الفرنسى هو نظام تعاون وتكامل بين القيادات الوطنية والقوات الأوربية .. ولكن الاسبانيين عجزوا عن فهم هذه الطريقة ، أو فهموها ورفضوا تطبيقها ، وكأنها تقلل من قيمتهم العسكرية ، ومن قيمة الانتصار الذى كانوا ينشدونه على الأهالى . وحاولوا أن يحكموا منطقة نفوذهم بالقوة ، وبالقوات العسكرية ، وبدون تفاهم مع الوطنيين ، واستنادا الى حقوق اتفقوا عليها مع الدول الأوربية .. وكانت هـــذه الطريقة تعتبر

صداما واضحا مع كل ما هو وطنى ، ودفعا للأهالى الى الوقوف مع قياداتهم الوطنية أمام الأجنبى المحتل .. ولم يكن استخدام القوة مع الرجال الأحرار الا ليزيدهم بأسا وقوة وتصميما على رفض التحكم فى بلادهم .. وفهم الأهالى أن السياسة الاسبانية تعمل من أجل عظمة اسبانيا وعزتها ومصالحها وحدها ، دون اعتراف للوطنى بأى حق فى بلاده .. وكان هذا يدل على انقلاب الأوضاع، خاصة وأن رجال المغرب كانوا يعلمون بما قاموا به فى الأندلس ، وما قدموه لهذه البلاد من تراث وحضارة ، ونظام حكم ، ومن دماء .

وكانت اسبانيا قد حاولت عن طريق بعض قوادها فى شمال المغرب ، وفى فترات معينة ، من استخدام « السياسة » ، أو الوسائل السلمية تجاه الأهالى ؛ ولكن هذه السياسة جاءت خرقاء ، وجاءت متحكمة كذلك فى عباد الله الصالحين ، ومتعارضة مع مصالحهم ، خاصة وأنها اشتملت على محاولات لمساعدة أحد الأهالى على فرض نفسه على الاقليم بأكمله ، وفى نظير اعترافه بولائه لاسبانيا ، كما تمثل ذلك فى سياسة الجنرال خوردانا والجنرال بورجيت تجاه الشريف الريسولى .. ولم يكن فى وسع الأهالى أن يقبلوا أن يهضموا مثل هذه السياسة ، خاصة وأن الريسولى افتقر الى الشعبية ، وكان يستخدم الشدة والعنف مع الأهالى ، ويعمل على استغلالهم ؛ كما أن ترابط مصالحه المالية مع الأوربيين ، وانفصاله عن رجاله الوطنيين ، لم يكن مما يساعد على موافقة الأهالى على مثل هذه السياسة .

وكان الاسبانيون قد حاولوا كذلك الدخول فى عملية تقليب واثارة الرؤساء الاقطاعيين الوطنيين بعضهم على بعض ، حتى تتمكن اسبانيا من الوصول عن طريق هذه التفرقة الى السيادة ، كما ظهر فى سياسة الجنرال بيرنجر ، والذى تعتبره اسبانيا أكبر قائد وادارى أرسلته الى المغرب فى تلك الفترة . والواقع أن هذه السياسة كانت تتعارض مع المصالح الفعلية للقوى الوطنية

الموجودة فى المنطقة ؛ واذا كانت بعض القيادات قد وافقت عليها ، فان رجال الثورة والجهاد قد رفضوها . وكانت الوحدة الوطنية أمام عدو أجنبى ومسيحى ، وعدو تقليدى ، لا تسمح لمثل هـذه السياسة بالصمود طويلا فى الميدان .

ولقد دل كل هذا على افتقار اسـبانيا الى الرجال الذين يمكنهم النزول الى بلاد الريف ، والرجال الذين يمكنهم منازلة أبطال الريف . ولا شك أن هـذا العامل ، مع شعور اسـبانيا بالضعف ، جعلها تتشبث بضرورة استخدام القوة والشدة ، والى أقصى درجة ممكنـة ، ما دامت تفتقر الى رجال الفكر والعلم والسياسة ؛ وذلك فى الوقت الذى كانت فيه اسبانيا أكثر تخلفا عن جارتها الأوربية ، وزميلتها فى المغامرة المغربية ؛ أكثر تخلفا عن فرنسا ، وفى النواحى العسكرية والاقتصادية . وكان من الصعب اقامة مقارنة بين القوات العسكرية والاقتصادية لكل منهما .

وكان الاسبانيون قد بدءوا عملياتهم لاحتلال منطقة نفوذهم فى شمال المغرب الأقصى من ثلاث قواعد هى مليلة فى الشرق ، وهو المكان الذى بدءوا منه تقدمهم صوب الداخل فى ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، وسبتة التى كانوا قد تقدموا منها جنوبا مع ساحل البحر الى تطوان ومصب ريومارتان فى ابريل سنة ١٩١١ ، ومن شـاطىء المحيط الأطلسى وذلك الشريط الساحلى الواقع بين العرائش ومنطقة طنجة ، والذى احتلوه فى صيف سنة ١٩١١ . وكان احتلال الاسبانيين لتلك المناطق من الأراضى السهلة المنبسطة عملا هينا نسبيا ؛ ولكنهم عجزوا عن التقدم فى بلاد الريف ، نتيجة لصعوبتها وصعوبة أراضيها ، وأراضى منطقة الجبالا المكملة لها . وبدلا من أن يتخذ الاسبانيون سياسة الشدة ، ويضعوا خطـة عسكرية لاخضاع بقية منطقة نفوذهم ، والسيطرة عليها ، بدءوا فى استخدام السياسة ، وقام الجنرال خوردانا ، المندوب السامى الاسبانى بالاتفاق فى سبتمبر سنة ١٩١٥ مع الريسولى ، رغم أنه كان قاطع طريق معروف ، يقيم فى تلك المنطقة ، ويفرض نفسه عليها ،

ويعيش من السلب والنهب ، ويحتمي وراء النفوذ الأجنبي . وفشلت هذه المحاولة الاسبانية للسيطرة على منطقة الجبالا بهذه الطريقة ، ما دام الريسولى كان يفتقر الى شعبية بين الأهالى ، ويفتقر الى تقرير الرؤساء المحيطين به . ولذلك فان الجنرال بيرنجر الذى خلف الجنرال خوردانا في منصب المندوب السامى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ قد اختار سياسة العمل ، وسياسة العمليات العسكرية ، ودون أن تكون لديه الخبرة والرجال اللازمون لذه العملية ، وفى ظروف معنوية غير مواتية ، وفى أراض تصعب طبيعتها من عملية تنفيذ مثل هذه السياسة . وكان رجال الريف يتتبعون من أعلى معاقلهم تحركات الاسبانيين العسكرية ، ومناوراتهم السياسية ، ويستعدون للقائهم ، ولنزالهم ، ولاخراجهم من البلاد .

حقيقة أن اسبانيا كانت قد سلحت قواتها بآخر وأحسن ما أنتجته المصانع الحربية الأوربية فى فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها ؛ ولكن التسليح لم يكن ليعوض افتقار الجنود الى حسن التدريب ، والى الضبط والربط . واذا كان أبناء الريف قد افتقروا فى أول أمرهم الى الأسلحة ، فانهم قد تمكنوا من الحصول عليها ، ومن أيدى الأعداء ، وفى ميدان المعركة ؛ واعتمدوا فى ذلك على حسن تنظيم قواتهم ، وبشكل ساعدهم على التفوق على خصومهم .. وكان من الصعب على الاسبانيين معرفة طبيعة الأرض، واستغلالها لصالحهم أكثر من معرفة أبناء البلاد بها ، وبكل شبر منها ، هذا علاوة على ارتفاع الروح المعنوية عند الرجال الوطنيين ، وبصفتهم من الأحرار والثوار ، وبشكل لا يمكن موازنته بالروح المعنوية لجنود تعمل فى الميدان الاستعمارى . وكان أبناء البلاد يدافعون عن أراضيهم وأبنائهم وأرزاقهم ، وما دام التحدى والقوة هو موضوع الجدال ، فان أبناء الريف كانوا يدافعون كذلك عن شرفهم ، ويدافعون عن بلاد الاسلام ضد القوات المسيحية .. ولا شك أن هذا السلاح المعنوى كان عاملا فعالا فى وصول الثوار فى بلاد الريف

الى مستوى عال من « التسخين السياسى » ، يصعب على أى عدو عملية نزالهم ، وخاصة فى معاقلهم .

وعلينا أن نضيف الى ذلك مسألة انقسام القوات الاسبانية فى اقليم شمال المغرب الى ثلاث وحدات محاربة ، لها ثلاثة قيادات : الأولى فى مليلة فى الشرق ، والثانية فى سبتة المطلة على المضيق ، والثالثة فى العرائش الواقعة على المحيط الأطلسى جنوب طنجة ؛ ورغم أن هذه القيادات الاسبانية لم تكن منفصلة عن بعضها جغرافيا ، الا أن كلا منها كان يتصل بوزير الحربية الاسبانية فى مدريد رأسا .. وكان هذا الاتصال المزدوج بينها وبين القائد العام فى شمال افريقية ، ومع وزارة الحربية فى مدريد فى نفس الوقت ، يعتبر فوضى واضحة ، تتعارض مع حسن التنظيم ، وتهدد بفشل أى سياسة أو خطة متكاملة فيما بينها ، وخاصة اذا ما تدخل عامل التنافس الشخصى بين هؤلاء القادة ، الفخورين بأنفسهم أكثر مما يتطلبه واقع الأمر .. وامتلأ الموقف بالمتناقضات بين هذه القيادات ؛ فنجد من ناحية أن حكومة مدريد قد عينت الجنرال بيرنجر فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٠ قائدا عاما للقوات الاسبانية فى شمال افريقية ، علاوة على كونه مندوبا ساميا فى المنطقة ، وكان هذا يدل على ضرورة توحيد العمليات العسكرية مع الخطط السياسية فى المنطقة بأكملها . ولكن الجنرال بيرنجر ترك لقواد المناطق المختلفة الخاضعة له حرية الاتصال بحكومة مدريد ، وبوزارة الحربية فى مدريد ، وبشكل يسمح بزيادة الفوضى ، ويتنافى مع التخطيط ، ومع سياسة التكامل فى العمليات . وشهد العام التالى فشله فى اجبار الجنرال سيلفستر على تنفيذ سياسته وخطته الاستراتيجية .

وعلينا أن نذكر بعد ذلك سوء أحوال وسائل المواصلات بين القيادات الثلاث ، والحالة العامة التى عاش فيها ضباط أركان الحرب الاسبانيين فى ذلك الوقت ، وفساد القادة فى الجيش الاسبانى نتيجة لتدخل العوامل السياسية والشخصية بينهم .

وأدت كل هذه العوامل الى اضعاف مجموع القوات الاسبانية فى تلك المنطقة ، فى ذلك الوقت الذى قرر فيه رجال الريف وقف التوسع الاسبانى ، وطرد الاسبانيين من البلاد .

والظاهر أن الجنرال سيلفستر كان قد فرض على الجنرال بيرنجر فرضا ، وأن روح التنافس بينه وبين رئيسه قد دفعته الى القيام بهجوم من مليلة فى الوقت الذى كان الجنرال بيرنجر يرغب فيه فى تركيز كل قواته فى القطاع الغربى .. وكان الجنرال سيلفستر يعتمد على الدسائس ، ويستند الى بعض الشخصيات الكبيرة فى مدريد لكى يستمر فى منافسته لقائده الأعلى ، ومناوشته له .

لقد كانت ظروف الاسبانيين غير مواتية ، فى الوقت الذى بدءوا فيه فى النزول الى ميدان العمليات ، وفى الوقت الذى صمم فيه رجال الريف على القضاء على هذه العمليات ، وعلى تحرير البلاد من الأجانب .

وكانت خطة الجنرال بيرنجر تتلخص فى اخضاع احدى المناطق بعد الأخرى . وكانت تستتبع تركيز معظم قواته فى هذه المنطقة ، واتخاذ موقف المدافع فى القطاعات الأخرى ، حتى لا يوزع قواته ومجهوداته ، وحتى يتمكن من الوصول الى حل عملى فى جزء معين، قبل أن يبدأ العمل فى بقية الأجزاء .. وبدأ الجنرال بيرنجر فى تنفيذ خطته ، وأخضع الانجارا ، واستعد لمهاجمة الريسولى .. وأوعز الى خليفة السلطان فى المنطقة الخليفية ، أى المنطقة الاسبانية ، بأن يعلنه خارجا عن القانون ؛ وصدر بيان بذلك بالفعل فى ٥ من يونيو سنة ١٩١٩ . وتمكن الاسبانيون من احتلال شفشاون ، لؤلؤة الجبل ، فى ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٢٠ ، وذلك كجزء من عملية تهدف عزل الجبالا وتطويقها ؛ ثم هاجموا الريسولى فى سنة ١٩٢١ . ووصلت القوات الاسبانية الى مسافة ستة كيلو مترات من تازاروت ، قصبة الريسولى ، فى أثناء العمليات

التى وقعت فيما بين ٢٥ من يونيو ، ١٦ من يوليو من تلك السنة .
وأعطى الجنرال بيرنجر للريسولى مهلة تنتهى فى يوم ٢٢ من يوليو لكى يسلم .. ولكن هزيمة ساحقة وقعت فى نفس اليوم لقوات الجنرال سيلفستر فى قطاع مليلة ، على أيدى رجال بنوورياغل ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى .. وحينما وصلت خطابات الريسولى الى أيدى الجنرال بيرنجر كان هو ورجاله قد ابتعدوا صوب الشرق ، لكى يحاولوا انقاذ ما يمكن انقاذه من بقايا جيش القطاع الشرقى ، الذى أنهى عليه رجال عبد الكريم الخطابى .

الفصل الخامس

معركة أنــــوال

كان الجنرال سيلفستر قد أخذ فى اعداد مشروع خاص به فى قطاع مليلة ، فى نفس الوقت الذى كان الجنرال بيرنجر ينفذ فيه خطته فى الغرب . وكانت خطة الجنرال بيرنجر تتطلب المحافظة على الهدوء فى بقية القطاعات الأخرى ، والى أن تتم عملية اخضاع اقليم الجبالا .. والواقع أن مشروع الجنرال سيلفستر لم يكن مضادا لمشروع رئيسه ، الا أنه كان يهدد بالوصول الى اشتباكات مسلحة ، وحالة حرب وعمليات ، فى الوقت الذى انشغلت فيه بقية القوات الاسبانية فى القطاعات الأخرى فى عمليات خاصة بها .. وتقدم الجنرال سيلفستر فى سنة ١٩٢٠ الى غرب نهر القرط واحتل دار داريوس فى شهر مايو ، ثم تافارسيت فى شــــــهر أغسطس .. ولم يصادف الجنرال سيلفستر مقاومة من جانب قبائل بنووورياغل ، فاعتقد فى سهولة الأمر عليه ، وفشل فى معرفة تصميم هؤلاء الرجال على استدراجه ، وكذلك استدراج قواته فى داخل المناطق الجبلية المرتفعـــة .. واستمرت قوات الجنرال سيلفستر فى تقدمها دون أن يتمعن هذا القائد فى الأمر ، وحصلت على بعض الانتصارات فى مدة أسابيع قليلة ، فدفع ذلك قائدها الى الشعور بالغرور ، والاستمرار فى التوغل ، حتى احتل أنوال فى ١٥ من مايو سنة ١٩٢١ .. ولم يعرف أن هذا الانتصار كان مجرد انتصار وقتى .

كان زحف الاسبانيين بهذا الشكل اعتداء واضحا على حقوق الاقليم ، واستهانة برجاله ، وعدم اعتراف بحرية رجال الريف ..

وحاول الأمير عبد الكريم الخطابى أن يحذر الجنرال سيلفستر من خطورة الاستمرار فى التقدم ، والدخول فى مناطق لا تعترف بحكم اسبانيا أو بالحماية الاسبانية الأجنبية .. ولكن الجنرال سيلفستر كان قد أعماه الغرور ، واعتقد فى امكانية فرض نفسه وقواته على البلاد ، فأصم أذنيه عن نصيحة الأمير عبد الكريم الخطابى ، التى كانت تحذيرا وانذارا للأجانب فى نفس الوقت . ويظهر غرور الجنرال سيلفستر من أنه قد قام بهذه العملية رغم اخبار الجنرال بيرنجر له فى ٢١ من مايو بأنه لن يتمكن من ارسال أى نجدات اليه .. كما أن الكولونيل موزاليس ، قائد الشرطة والمسئول عن الأمن العام فى قطاع مليلة ، كان قد أوصاه باستخدام السياسة بدلا من الشدة والعنف ، وخاصة مع الأمير عبد الكريم الخطابى .. ولكن الجنرال سيلفستر أصم أذنيه عن كل هذه النصائح ، وأرسل ردا جافا كل الجفاف الى الأمير .. وذكر له أن اسبانيا لها من القوة ما يسمح لها بالذهاب أينما شاءت ، وانه قد صمم شخصيا على دخول أراضى بنوورياغل واخضاعهم ، حتى ولو كان رجال عبد الكريم أنفسهم سيحاولون منعه . وهكذا اختار هذا الجنرال طريق العنف بدلا من السياسة والتفاهم ، والمحبة والاحسان ، وحمل قراره معنى الغرور والتحدى ، وفى وقت صعب فيه على قيادة الجيش الاسبانى العامة أن تسانده فى حركته ، ما دامت هذه القيادة كانت مشغولة أمام الريسولى فى اقطاع الجبالا .. واتخذ هذا الطريق لكى يسير فى أراض طبيعتها فى صالح الوطنيين، ولهم روح معنوية تمتاز عن روح الاسبانيين .

وكانت قوات الجنرال سيلفستر مشكلة من ٢٤٫٠٠٠ جندى ، منهم أربعة آلاف من مجندى المغاربة ؛ وكان لديه فى أرض العمليات فى الداخل ما يقرب من ٢١٫٠٠٠ جندى ، مجهزين بالأسلحة والمدفعية والمدافع الرشاشة .. فصمم على تنفيذ وعيده دون استشارة الجنرال بيرنجر ، واحتل جبل عبران فى أول يوليو ، وهو جبل يقع على بعد ١٢ كيلوا مترا من أنوال ، ويطل على

الحسيمة ومنطقة أجدير ، مركز قبيلة بنوورياغل . وكان معنى ذلك الدخول فى الحرب ضد الأمير عبد الكريم الخطابى .

وكانت قيادة الأمير عبد الكريم الخطابى لقبائل بنوورياغل أساسا صالحا لتوليه قيادة عمليات تحرير البلاد من المحتلين الأجانب . كما أن التفاف عدد من رجال المنطقة المحيطة به حوله ، وتصميمهم على الجهاد ، قد عمل على زيادة عدد رجاله اللازمين للنزول الى المعركة .. وكان الأمير عبد الكريم الخطابى مع تلك المجموعة من الرجال التى أحاطت به ، وأصبحت أركان حرب له ، قد بدأ فى تنظيم الرجال وتوزيعهم على المناطق والمواقع فى الجبال ، وتسهيل عملية الاتصال بهم ، وبطريقة منظمة ، وفى شروط واعية من الضبط والربط ، مع كفاءة عالية فى التدريب . وكانت هذه المواقع المنتشرة على سفوح الجبال وقممها ، والتى تتصل ببعضها بسهولة ، وتحظى بتأييد كل الأهالى ومعونتهم ، وحتى النساء والأطفال ، تعتبر شبكة قوية يصعب على أى قوات أجنبية أن تقضى عليها بسهولة . وكانت الطرق والمسالك الموجودة فى هذه المنطقة الجبلية قليلة فى عددها ، وخاصة تلك التى تسمح بمرور قطع المدفعية وقوافل التموين .. وكان فى وسع الوطنيين أن يقوموا باصطياد هذه الطوابير المتحركة بمنتهى السهولة ، وهم فى مواقعهم ومراكزهم المنتشرة فى كل مكان ، والتى يصعب على العدو أن يكتشفها بسهولة . وكان هذا التنظيم لمجاهدى الريف ، مع حسن الضبط والربط ، سببا أساسيا لانتصار هؤلاء الرجال على القوات الاستعمارية المغرورة ، والتى تزحف فى الاقليم ، وفى ظروف فى غير صالحها .

وما أن احتل الاسبانيون جبل عبران حتى قام رجال بنوورياغل بمهاجمته فى نفس الليلة ، وتمكنوا من احتلاله .. وكانت بداية العمليات الحربية .. وكانت القوة الاسبانية المعسكرة فى هذا الموقع تتكون من ٢٥٠ جنديا ، منهم مائتان من المجندين المغاربة . وما إن ابتدأ القتال حتى أسرعوا بترك خطوطهم ومواقعهم ،

وأسلحتهم فى أيديهم ، وانضموا الى اخوانهم المغاربة المهاجمين . وأثبتت هذه العملية عدم أمن استخدام العناصر الوطنية فى القوات الاستعمارية ، فى وقت ثورات التحرر الوطنية ، كما أثبتت وجود صلات بين رجال عبد الكريم الخطابى وبين المجندين المغاربة فى القوات الاسبانية فى شمال افريقية فى ذلك الوقت .

ولقد واصل أبناء الريف هجومهم بعد ذلك على جميع المواقع التى كان الاسبانيون قد احتلوها فى شهرى ديسمبر ويناير فى هذه المنطقة ؛ وحاصروا هذه المواقع . واضطرت حامية ايجربين الى الاستنجاد بالجنرال سيلفستر ، وطلبت امدادها بالماء والمؤن . وحاول الجنرال أن ينجدها ، وأرسل طابورا للقيام بهذه العملية .. ولكن هذا الطابور الاسبانى فشل فى فك حصارها ، أو المرور بين القوات الوطنية المحاصرة لها ، وفشل حتى فى الاتصال بها .

وشعر الجنرال سيلفستر بخطورة الموقف بعد أن وجد قواته ومواقعه محاصرة فى كل مكان .. وشعر بأن كل اتصال بينها قد انقطع .. فاضطر الى القيام بمحاولة لتجميع معظم قواته فى مكان معين ، حتى يتمكن من مواجهة الموقف ، وعمل على تركيز جميع قواته الموجودة فى قطاع مليلة فى موقع أنوال ، وحاول أن يقـوم بعمليات جديدة لفك حصار أيجربين فى ٢١ من يوليو .. ولكن رجال الريف كانوا قد حصنوا خطوطهم حولها ، وردوا الاسبانيين القادمين من جديد .

وساء الموقف فى ايجربين ، وانخفضت الروح المعنوية عند المحاصرين ، وثارت فكرة العزة والكرامة نتيجة لرؤيتهم الهزيمة ماثلة أمام أعينهم ، وعلى أيدى الوطنيين ، وفى وسـط هـذه المتناقضات من روح الاستسلام والعزة والرغبة فى الانتصار ، أخذ بعض الضباط فى الانتحار ، حتى لا يعيشـوا ويروا الهزيمة .. ووصل الذعر الى قلب الجنرال سيلفستر نفسه ، الذى قرر العمل على انقاذ ما يمكن انقاذه ؛ وأصدر أمره باخـلاء أيجربين

والانسحاب منها .. ولكنه شعر بأن قواته الرئيسية التى جمعها فى أنوال نفسها قد أصبحت مهددة بعد أن حاصرها وطوقها رجال الريف ، وفى ليلة مليئة بالقلق فقد القائد الاسبانى سيطرته على الموقف ، وسيطرته على نفسه ، فى الوقت الذى فقد فيه الجنود روحهم المعنـــوية ، وانتشر بينهم الذعر ، وفى صـــبيحة اليوم الثانى والعشرين ، وتحت تأثير الخوف من هجوم رجال الريف ، أصدر الجنرال سيلفستر أمره بالانسحاب من أنوال نفسها ؛ وكان التقهقر ، وكان الالتحام ، والفوضى ، وكانت الهزيمة الساحقة .

ومن الصعب على الخبراء العسكريين أن يقدموا تقريرا مفصلا عن طريقة سير العمليات فى هذا اليوم ، وفى هذه الواقعة ؛ اذ أن مواقع رجال الريف حول أنوال ، وطريقة تحركاتهم وقت محـــاولة الاسبانيين الخروج والانسحاب لا تزال أمرا غير ثابت من الناحية العملية .. وبقى الجنرال سيلفستر فى ذلك الموقع ، ولكن أحدا لم يعرف مصيره على وجه التحديد . أما القوة الاسبانية فانها قد اندفعت على الطريق الموصل الى مليلة ، وفى حالة ذعر وفوضى ، وروح معنوية لا تحسد عليها .. وقام المجندون المغاربة فى القوات الاسبانية بالانفصال عن هذه القوات ، وانضموا الى اخوانهم رجال الريف ، واشتركوا معهم فى مهاجمة وتعقب الاسبانيين أثنـــاء تقهقرهم .

وكان لأسبانيا عدد من الحاميات موزعة على مواقع عسكرية بين أنوال ومليلة ، وكان عدد هذه المواقع ١٣٠ موقعا ، وفر معظم رجال هذه الحاميات ، الا من بقى فى مكانه منهم ، فقد اضطر الى التسليم .

ولم يأت يوم ٢٥ من يوليو الا وكل الاقليم ، وحتى أســوار مليلة ، قد وقع فى أيدى الثوار المجاهدين .. حقيقة أن الجنرال نافارو كان قد تمكن من أن يصل ببقية القوة المتقهقرة الى ما يقرب من ٤٠ كيلو مترا من مليلة ، ولكنه كان قد فقد كل قطع المدفعية ،

ومعظم أسلحته وذخائره وتموينه .. ورغما عن أن الجنرال بيرنجر كان قد وصل الى مليلة فى ٢٣ الا أنه قد فشل فى الخروج من المدينة ، وفشل فى كل المحاولات التى قام بها لانقاذ بقايا هذه القوات المتقهقرة والمنسحبة فى هزيمة تامة ، وفى فوضى واضحة .. وظل الجنرال نافارو مع بقايا جنوده محاصرا فى مواقعه أمام مليلة، وعجز عن الوصول الى القاعدة الاسبانية الرئيسية ، وعن الاتصال بقائده العام بيرنجر هناك .. وظل على هذا الوضع حتى يوم ٩ من أغسطس ، دون أن يتمكن أحد من امداده أو انقاذه ، رغم قرب اسبانيا نفسها من مليلة . فاضطر الجنرال نافارو الى التسليم الى قوات التحرير المغربية المحاصرة له ، فأرسلوه أسيرا الى الأمير عبد الكريم الخطابى ، القائد العام لعمليات التحرير .

ولقد قضت هذه العملية على جيش الجنرال سيلفستر ، ولم يبق بعدها فى مليلة نفسها الا بضع مئات من الجنود . واذا ما رجعنا الى احصائيات الاسبانيين أنفسهم عن خسائرهم فيها فاننا نجد اعترافهم بفقد ١٤٫٧٧٢ رجلا ؛ و ٢٩٫٥٠٤ من البنادق و ٣٩٢ مدفع رشاش و ١٢٩ مدفع ميدان ، علاوة على ٥٧٠ أسيرا .

وعلينا أن نعترف بأن هذه الهزيمة التى حاقت بالاسبانيين فى أنوال على أيدى رجال عبد الكريم الخطابى كانت أكبر وقعا من الناحية النفسية عنها من الناحية المادية ؛ ولم يكن أى جيش أوربى قد ذاق مثل هذه الهزيمة الساحقة على أيدى الوطنيين فيما وراء البحار منذ هزيمة القوات الايطالية فى عدوة سنة ١٨٩٦ .

ومنذ ذلك الوقت سيطرت « المسألة المغربية » ومشكلة الريف، على الحياة العاملة فى اسبانيا ، وسحقت ميزانياتها واستنزفتها ، وأضعفت قوتها من الرجال . أما الريف فانه قد سار فى طريق الثورة ، هادفا تحرير بلاده ، وبقوة رجاله ، وبقوة السلاح ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى .

الفصل السادس

مواصلة عمليـــات التحـــرير

اعتمد الأمير عبد الكريم على الفنون الحديثة الموجودة فى دول الغرب أساسا للقيام بعملياته ، فى الوقت الذى عجز فيه الاسبانيون عن تطبيق هذه الفنون فى منطقة نفوذهم فى شـــمال المغرب .. ودرس الأمير الاستراتيجية التى طبقها فى الحرب ، وأصبح يحصل على ما يلزمه من مال وسلاح من أيدى الاسبانيين أنفسهم .. وزود أبناء الريف أنفسهم بما يلزمهم من معدات وأسلحة وذخائر ، وحتى أجهزة التليفون ، والآلات الكاتبة ، وذلك من الغنائم التى كانوا يحصلون عليها من الاسبانيين .. أما الأموال فكانوا يتسلمونها نظير افتداء ما يقع فى أيديهم من أسرى . لقد تمكن عبد الكريم الخطابى بهذه الطريقة من أن يزود قواته بكل ما يلزمها ، وبشكل ساعد على استمرار نمو قوته ، وبشكل أرهب الأعداء .

ولقد سرت بعض الاشاعات مدعية أن الأمير كان يتلقى المال والسلاح ، والذخائر وبعض المعونة الفنية من دول خارجيـــة ، وبشكل سمح لكل دولة أوربية بأن تتهم الوطنيين فى الدول الأخرى المعادية لها ، أو المنافسة لها ، بمساعدتها لعبد الكريم . والواقع أن مروجى هذه الاشاعات كانوا من قصر النظر والتعصب بشكل جعلهم لا يفكرون فى امكان قيام رجـــال الريف ـ بقوة سواعدهم وقوة ايمانهم ـ بتحقيق مثل هذه الانتصارات . ولم يتسلم الأمير عبد الكريم أى معونة خارجية فى أثناء قيامه بجهاده التحررى ، وأعلن ذلك فى بلاغ رسمى أمام مندوب جريدة التايمز فى لندن فى يوم ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٢٤ . وهو البلاغ الذى نشر فى هـــذه

الجريدة في اليوم التالى .. ولقد زادت قيمة انتصارات أبناء الريف نتيجة لوقوفهم أمام عدو ثبتت عدم صلاحيته للنزول الى مثل هذا الميدان ، وأمام أمثال هؤلاء الرجال .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابى ثائرا يعرف معنى الثورة ، وقائدا يعرف طريقة وضع الخطط ، وطريقة الوصول الى هدفه ، والانتصار . وكان وطنيا يؤمن بحق أبناء البلاد فى أن يعيشوا فى ظل حرية ، وفى ظل مساواة ، فرفض سيطرة الأجنبى وتسلطه على منطقة لم تعرف القهر أو الخضوع ، منذ فجر التاريخ .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابى قد صمم على رفض الحماية الاسبانية ، وصمم على الاستقلال ، وعلى ضرورة ضم كل رجال الريف والجبالا الى ثورته ، والسير بهم فى حرب تحرير وطنية ضد الاسبانيين .

لقد كان فى وسع أبناء الريف أن ينهوا الحرب بسرعة ، وبموقعة عسكرية هامة ، اذا ما قاموا بعد أنوال بالزحف على مليلة ، ومحاصرتها واحتلالها ، خاصة وأن هذه المدينة ظلت لمدة أسابيع عديدة بعد هزيمة الاسبانيين فى أنوال وحاميتها ضعيفة ؛ ولكن افتقار أبناء الريف الى وسائل الدفاع البحرية والساحلية أجبرهم على الاحتفاظ بقوتهم لعمليات تقع فى ميادين أخرى ، ويضمنون فيها النصر . وعلى أى حال فقد سمح ذلك للاسبانيين بارسال قوة بلغت ستين ألف جندى الى هذه المدينة المهددة .. وبدأ الجنرال بيرنجر هجوما مضادا فى ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٢١ ، وبعد سنة وخمسين يوما من هزيمة قواته ، أو هزيمة قوات قائده سيلفستر فى أنوال .. ولكن الاسبانيين عجزوا عن احتلال جبل خورخو ، وهو الجبل الذى يتحكم فى مليلة من الجنوب الغربى ، الا فى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر .. وأما خط نهر القرط فانهم لم يبلغوه الا بعد شهر آخر .. ولكن الاسبانيين تمكنوا من احتلال الشريط الساحلى الواقع بين نهرى القرط والمليلة قبل

نهاية العام ، واحتلوا دار داريوس فى أعالى وادى القرط فى ١٠ من يناير سـنة ١٩٢٢ ، ولكن بعد أن بلغت قواتهم فى شمال المغرب ١٥٠٫٠٠٠ مقاتل .

وعند هذه المرحلة أوقف الجنرال بيرنجر هجومه المضاد فى قطاع مليلة ، وعاد الى استراتيجيته القديمة ، التى تقضى بالبدء باخضاع القطاع الغربى ، قبل الاستمرار فى العمليات فى القطاع الشرقى ، قطاع مليلة ، قطاع الأمير عبد الكريم الخطابى . وكان هذا يدل على عجز الجنرال عن الحصول على أى انتصارات أمام الأمير عبد الكريم ورجاله ، ومحاولته البحث عن انتصارات جانبية أخرى ، يصفق لها الرأى العام فى اسبانيا ، وقد تساعد على عودة ثقته بالعسكريين الفاشلين .

ولكنا نلاحظ أن موقف الاسبانيين قد ساء حتى فى القطاع الغربى ، خاصة وأن الريسولى كان قد أفلت من قبضتهم فى الوقت الذى تأهبوا فيه لأسره ، وأن بعض قوات عبد الكريم نفسها قد أخذت فى مهاجمة الاسبانيين فى هذا القطاع الغربى .

ولقد قامت قوة من رجال الريف ، بقيادة محمد عبد الكريم، ومجهزة بالمدفعية المأسورة من الاسبانيين ، بالهجوم على المواقع الاسبانية الواقعة على خط المواصلات بين تطوان وشفشاون فى ٢١ من أكتوبر سنة ١٩٢١ ؛ وأخذ عدد من رجال الريسولى يساعدون أبناء الريف ، وبشكل أعجز الاسبانيين عن سحب هذه الحاميات حتى ١٩ من نوفمبر .. ولم تتم هذه العملية الا بعد معارك عنيفة ، ومريرة على الاسبانيين . ثم عاد الجنرال بيرنجر الى استراتيجيته السابقة فى سنة ١٩٢٢ وركز قواته ضد الجبالا ، ونجح فى ١٢ من مايو فى الاستيلاء على قصبة الريسولى فى تازاروت . ولكنه اضطر الى الاستقالة حينما شعر أن حكومة مدريد ستضحى به أرضاء للرأى العام ، وخصوصا بعد اتهامه بتوريط الحكومة الاسبانية فى شمال المغرب .

وجاء الجنرال برجيت خلفا له ، وغير فى الحال سياسته ، بل قلبها رأسا على عقب . فبدأ المفاوضات مع الريسولى حتى يسمح لنفسه بتركيز كل قواته فى قطاع مليلة ضد عبد الكريم .. ولقد دامت المفاوضات بين الاسبانيين والريسولى من ٦ من أغسطس حتى ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٢٢ وقبل الريسولى التسليم ، وان كانت شروط هذا التسليم قد تركته سيد الموقف .. وجـلا الاسبانيون عن تازاروت ، وقبلوا دفع تعويض الريسولى عما أتلفته العمليات الحربية فى منطقته ، وقبلوا نقل جميع الضباط والموظفين من الاسبانيين والوطنيين الذين أعلن الريسولى عدم رضائه عنهم .. وكان ثمنا باهظا دفعه الجنرال برجيت فى القطاع الغربى لكى يبدأ عملياته فى قطاع مليلة ، ابتداء من الشهر التالى .. ورغم أن الاسبانيين قد تمكنوا من احراز بعض الانتصارات المحلية فى هذا القطاع الأخير ، الا أن تقدمهم قد أوقف نهائيا ، وبهزيمة ساحقة فى تيزى عـزة ، وتشبه هزيمة أنوال ؛ وان كانت على مقياس أصغر .

ولقد تمكن عبد الكريم من مد نفوذه وسلطته من المنطقة التى تحتلها قبيلته ــ بنوورياغل ــ الى كل بلاد الريف وغماره . وربما كانت هذه هى أول مرة يشهد فيها التاريخ اتحاد قبائل شمال المغرب تحت حكومة موحدة ، بعد أن اعتادوا محاربة بعضهم بعضا، وصرف مجهودهم فى محاربة جيرانهم .. وأصبحت أجدير هى عاصمة تلك الدولة الجديدة ، التى أنشأها عبد الكريم ؛ وهى قرية صغيرة تبعد ببضعة كيلو مترات عن خليج الحسيمة ، الذى كان الاسبانيون يعسكرون على ساحله أو شاطئه الضيق ، فى أسفل الجبال .. ولقد قام أبناء الريف بتحصين عاصمتهم بما أسروه من أيدى الاسبانيين ومن معسكراتهم ، وتمكنت مدفعيتهم من أن تضرب وتغرق السفن الاسبانية وهى تفرغ حمولتها من الذخائر والتموين فى الحسيمة ، وذلك ردا على قرار حكومة مدريد بتطبيق

الحصار البحرى على سواحل الريف ، والذى صدر فى ١٨ من مارس سنة ١٩٢٢ .

ولقد شهد خليج الحسيمة مفاوضات بين مندوبى الاسبانيين وبين الأمير فى يناير سنة ١٩٢٣ ، وذلك لاخلاء سبيل من بقى فى الأسر من جنودهم بعد معركة أنوال ، وذلك نظير مبلغ ٤ ملايين بسيطة اسبانية ، علاوة على اخلاء سبيل المغاربة نزلاء سجون مليلة وسبتة وتطوان . وكان معظمهم من المسجونين السياسيين .

وشدد الأمير عبد الكريم هجومه على خطوط الاسبانيين طوال صيف سنة ١٩٢٣ . ولقد عرض السكرتير العام للمنطقة الاسبانية، فى ١٥ من يوليو ، على الأمير كتابة استقلالا ذاتيا تحت الحماية الاسبانية وسيادة سلطان المغرب .. فرد عليه الأمير رافضا الاعتراف بالحماية الاسبانية ، ومطالبا بتطبيق مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها . وحضر أحد الجنرالات الاسبانيين . وهو الجنرال كاسترو جورونا سرا بمقابلة الأمير فى أجدير ؛ ولكن هذه الاتصالات لم تؤد الى نتيجة . ووقع انقلاب الجنرال بريمو دى ريفيرا فى شهر سبتمبر ، وأصبح على اسبانيا أن تواجه مشكلات شمال المغرب فى نفس الوقت الذى تواجه فيه مشكلاتها الداخلية.

ولقد استمر أبناء الريف فى مواصلة الضغط على جبهة مليلة، وبشكل أجبر الماركيز دى استيلا على أن يعلن فى خطابه الرسمى، الذى ألقاه فى ٢٦ من يونيو سنة ١٩٢٤ أن الحكومة قد قررت سحب جميع المواقع العسكرية المتقدمة فى كلا القطاعين ، والانسحاب حتى الساحل ، ولكن قبل أن ينتهى ذلك الشهر ، كان رجال عبد الكريم يشنون هجوما آخر مفاجئا ، فى قطاع آخر ؛ هجوما على المواقع الاسبانية فى وادى لاو ، وهو الذى يمر فيه الطريق الموصل بين تطوان وشفشاون ، فى القطاع الغربى .. وأخذ رجال عبد الكريم فى اغراء الجبالا على الانضمام اليهم .. ورغما عن ازدياد عدد القوات الاسبانية فى هذا القطاع الغربى ،

نتيجة لاستمرار وصول الامدادات اليهم ، وارتفاع عددهم الى مائة ألف جندى ، منهم ستون ألفا على طريق تطوان ، ورغما عن ذلك فان جبهة وادى لاو قد انكسرت فى خلال شهر أغسطس .

وكان الاسبانيون قد اعتمدوا على الريسولى للمحافظة على الهدوء بين قبائل الجبالا ، ولكن نجمه كان قد أخذ فى الأفول فى الوقت الذى أخذ فيه اسم عبد الكريم يتردد على كل لسان .. وتمكن رجال القبائل من قطع الطريق بين تطوان وشفشاون نهائيا . وحاصروا قوة اسبانية كبيرة بلغت ثلاثة آلاف جندى على مسافة خمسين كيلومترا من قاعدتهم ، كما تمكنوا كذلك من قطع الطريق الموصل بين تطوان وطنجة .. وفى أوائل شهر سبتمبر أخذ رجال الريف يهاجمون الاسبانيين وهم على مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن تطوان نفسها ، مقر الحماية الاسبانية .

وكان الماركيز دى استيلا قد زار قطاع تطوان فى أثناء الصيف ثم فى أثناء الخريف ، وكان يعرف صعوبة العمليات فى هذه المنطقة؛ فاضطر الى أن يقرر تنفيذ سياسة الانسحاب الى الساحل ، بمجرد فك حصار حامية شفشاون . وظهر أن نية الحكومة الاسبانية كانت هى تحديد منطقة احتلالها فى قطاع مليلة بالأراضى الواقعة فى غرب نهر القرط . وفى القطاع الغربى بالمنطقة التى تحيط بطريق طنجة ــ تطوان ، وعلى ساحل المحيط الأطلسى ، ولكن باستثناء منطقة الجبالا .. وكانت سياسة الانسحاب الى الساحل ، تسمح لعبد الكريم بممارسة سلطات الاستقلال الفعلى .. ورأت اسبانيا من جانبها امكانية قبولها لممارسة عبد الكريم لهذا الاستقلال ، ولكن على أساس أن يكون استقلالا ذاتيا ، وخاضعا للاتفاقيات الدولية التى أخضعت المغرب لنظام الحجر الاستعمارى ؛ أى أن يعترف عبد الكريم بخضوعه للسلطة الشرعية لسلطان المغرب ، ولسلطة خليفته فى تطوان ، ويعترف كذلك باسبانيا كدولة حامية . وأمام هذا الاصرار من جانب الاسبانيين ، أصر الأمير على أنه مستقل

بالفعل ، وأنه من الضرورى أن تقوم اسبانيا بدفع تعويضات حرب لسكان الريف والجبالا ، نتيجة لتخريبها بلادهم فى مدة الاثنتى عشرة سنة الأخيرة بتلك الحرب الاستعمارية ؛ وعليها أن تدفع كذلك فدية عن الأسرى الاسبانيين ، وأن تسحب كل قواتها الى مستعمرات التاج القديمة ، والى داخل حدودها ، وتترك البلاد وأهلها فى سلام .

ولقد تمكن الاسبانيون فى ٢٩ من سبتمبر من أن يفكوا حصار شفشاون بعد معارك استمرت مدة عشرة أيام .. وأحرز أبناء الريف انتصارات أخرى فى بلاد الجبالا .. وعينت الحكومة الاسبانية الماركيز دى استيلا فى ١٦ من أكتوبر مندوبا ساميا فى منطقة نفوذها ، وقائدا عاما فى نفس الوقت ؛ وذلك حتى يتمكن من الاشراف على عملية الانسحاب العامة ، مزودا فى ذلك بسلطات من التاج ، وسلطات عسكرية وادارية وقضائية ودبلوماسية . وكان هناك ما يقرب من أربعمائة موقع اسبانى منعزل ، يضم كل منهم حامية يتراوح عددها بين عشرة رجال ومائة جندى ، وتضم فى مجموعها عشرين ألف جندى . وكان بعض هذه المواقع على قمم الجبال ، وينقصها الماء ، وكانت تعتبر أسيرة لدى القبائل المحيطة بها . ولقد أشار الماركيز نفسه الى خطورة وقوع هذه القوات فى أيدى الوطنيين ، وخطورة حصول الوطنيين على الأسلحة والذخائر الموجودة فيها ، وان كان السلاح قد أصبح متوفرا فى ذلك الوقت فى أيدى رجال الريف .

وكان الجنود الاسبانيون يشترون حريتهم وحق انسحابهم أمام رجال الريف بتسليم أسلحتهم وذخائرهم وبدفع فدية مالية .. ولقد ثبت أن حامية بوحاريد التى كانت تتكون من ٣٥٦ رجلا قد سلمت فى يوم ١١ من أكتوبر ، وبعد حصار دام ٤٠ يوما ، وبعد أن فشلت كل محاولة لفك حصارها . واحتل المجاهدون مراكز تموينها بالماء . وثبت أن قائد تطوان قد سلم للقوات المحاصرة ،

ومقدما ، عددا من البنادق الجديدة يعادل عـدد أسحة الجنود المحاصرين ، حتى يقبلوا رفع الحصار عنهم ، ويتركوهم ينسحبون الى تطوان .

ومع بدء حامية شفشاون فى الانسحاب فى شـهر نوفمبر ، واخلائها لعدد كبير من المواقع ، ووصولها الى مشارف تطوان ، تدعمت القوة الاسبانية فى هذه المدينة الأخيرة . ولكن عمليـة الانسحاب هذه هدمت كل النفوذ الاسبانى فى المغرب ، وأخذت قبيلة الانجارا ، التى تسكن المثلث الواقع بين تطوان وسـبتة وطنجة ، تظهر عداءها ثم تعلن ثورتها على الاسبانيين . وقامت فى أواخر شهر أكتوبر بالهجوم على القصر الصغير ، واستولت عليه فى أوائل شهر ديسمبر .. وهكذا امتدت الثورة الى ما وراء ذلك الخط الذى عزمت اسبانيا على اقامته أمام قوات الريف ، وقبل أن تتمكن من اتمام اقامته .. وواصلت اسبانيا عروضها على عبد الكريم طوال فترة الانسحاب ، ولكن القائد الوطنى أصر على ضرورة انسحاب الاسبانيين ودفعهم تعويضات للحرب .

ولقد كلفت هذه العمليات اسبانيا فى مدة الستة الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٤ خسائر بلغت ٢١٫٢٥٠ قتيلا ومفقودا وأسيرا . من الضباط والجنود ، وطبقا للتعداد الرسمى لوزارة الحربيـة الاسبانية فى مدريد .. واذا كانت حكومة اسبانيا قد فكرت فى خلال النصف الأول من عام ١٩٢٥ فى أن تقتصـد فى الأرواح والأموال والمجهودات ، مستغلة فى ذلك عملية انسحابها الى الخط الجديد ، فان آمال اسبانيا قد خابت نتيجة لثورة الأنجارا ، فيما وراء هذا الخط ؛ واضطرت اسبانيا الى الاستمرار فى العمليات الحربية التى كانت تكلفها الكثير .

ولم تحاول اسبانيا احتلال منطقة الانجارا بشكل دائم ، بل اكتفت باعادة فتح الطريق بين طنجة وتطوان ، حتى تستخدمه كممر بين المنطقتين التى يسيطر عليهما الثوار ؛ منطقة الانجارا فى

الشمال ، ومنطقة الجبالا فى الجنوب .. وطوقت القوات الاسبانية الأراضى المحيطة بمنطقة طنجة الدولية ، حتى تمنع القبائل الثائرة من بيع محصولاتها فيها ، وشراء حاجياتها الضرورية منهـا .. وأتمت اسبانيا حصار الانجارا فى آخر شهر يناير سنة ١٩٢٥ ثم قامت باعادة احتلال القصر الصغير فى آخر مارس . ولكن اسبانيا قصرت عملياتها فيما بعد ذلك على ضرب القرى بقنابل الطائرات، وتعذيب الأهالى المغاربة الذين كانوا يحاولون التسلل ليلا بين الاستحكامات الاسبانية لتسويق بعض سلعهم فى طنجة .. وكانوا من الفقراء ، وكثير منهم من النساء ، يسيرون مسافات طويلة ، ويحملون على ظهورهم بعض الحطب أو الفحم أو بعض قطع من الجلود أو بعض الحبوب لبيعها والتعيش منهـا . ولم يتورع الاسبانيون من محاربة هؤلاء المغاربة ، ولم يتراجعوا أو يترددوا فى تعذيب النساء والضعفاء . ولقد تمكنت اسبانيا باقتصارها على هذا التكتيك الجديد من أن تقلل عدد جنودها فى شمال افريقية ، ولكنها فقدت فى نفس الوقت كل أمل فى الوصول الى تسوية مع الوطنيين . ذلك أن هذا التكتيك الجديد قد أثار رجال القبائل ، خاصة وأن اسبانيا كانت تطبقه على العناصر غير المحاربة؛ هذا علاوة على أنه قد هدد باثارة مشكلات دبلوماسية ، نتيجة لاعتداء اسبانيا المتكرر على منطقة طنجة الدولية ، وبدعوى مطاردتها للثوار . وزاد الطين بلة أن اسبانيا كانت ترفض دائما مرور الأدوية وأدوات الاسعاف الطبية للجرحى من رجال الريف، رغم أن قوات عبد الكريم كانت تحتاج الى الأدوية لنفسها ، وحتى لمعالجة الأسرى الأوربيين .

ولقد استمر عبد الكريم فى تدعيم سلطته ، ومد نطاق دولته الثورية فى منطقة الجبالا .. حقيقة أن الأمير عبد الكريم قد لقى بعض المقاومة من بعض سكان منطقة الجبالا فى يناير سنة ١٩٢٥ ، وكانت هذه القوى المضادة فى غالبيتها من ملاك الأراضى وأصحاب

القطعان ؛ ولكن الأمير لم يتراجع عن استخدام الشدة ضدهم ، وصادر أراضي ومواشي من تعامل مع الاسبانيين من بينهم .. وانتهت هذه الحركة التى بدأت فى شفشاون ، بالقاء القبض على الريسولى فى قصبته فى تازاروت ، ونقله الى أجدير حيث مات فى شهر أبريل .

وهكذا أصبح عبد الكريم الخطابى رئيســا لدولة ، وقائدا لثوار ، وزعيما لشعب ، وبدون أى منافس . وأخذت الأنظار تتجه اليه من مشارق العالم العربى ؛ كما أخذ الكثير من الوطنيين ينظرون اليه على أنه أمل العالم العربى فى الكفاح ضد الاستعمار ؛ وأصبحت أنباء عملياته ــ رغم بعدها عن المشرق ــ تصل اليه ، وتزيد الحماس فى قلوب الوطنيين .

ولقد أخذ محمد عبد الكريم ، أخو الأمير ، وقائد قوات الريف والجبالا ، فى شرح سياسة أخيه ، والشروط التى يقبلون بها انهاء الحــرب . وذكر أن هدف الحرب الوحيــد هو تحرير الريف والجبالا ، وأنه ما أن تنتهى هذه الحرب حتى يكرس رجال القبائل مجهوداتهم للاصلاح الداخلى والتعمير ، وأنهم يوافقون على ترك سبتة ومليلة فى أيدى الاسبانيين ، ولكنهم قد يغيرون موقفهم اذا ما واصلت حكومة مدريد تشددها .. وشرح الأمير أنه لا يوجد بين صفوف المجاهدين الثوار أى وكلاء بلشفيك ، أو ضــباط أجانب ، وأنهم يرغبون فى أن يعيشوا فى سلام مع كل جيرانهم ، ولا يفكرون فى الهجوم على منطقة طنجة ، أو التدخل فى نظامها الدولى ، وأن الريف لا يحمل أية ضغينة لأى من الدول الأوربية ، ما دامت تعترف بوضعه وباستقلاله .. وشرح الأمير أن أبنــاء الريف قد أثبتوا منذ سنوات قدرتهم على حكم أنفسهم بأنفسهم ، وبطريقة عجزت بعض الدول الأوربية عن الوصول اليها ، وعن مجابهتها .. انهم مســلمون ، ولكنهم متحررون ، ويمكنهم أن

يوفقوا بين تعاليم الاسلام وبين التقدم العلمى الحديث فى بناء دولتهم الوطنية .

ورغم أن اسبانيا لم تكن مستعدة ، ونتيجة لغرورها ، لقبول شروط الأحرار ، الا أن قيـــادتها بدأت فى المفاوضة مع رجال الريف فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ ، وللوصول الى هدنة ، وعلى أساس وقف القتال ، وعدم تحرك القوات والحاميات الاسبانية من مواقعها ، وفتح أســـواق بالقرب من الخطوط الاسبانية .. ولكن هـــذه المفاوضات انقطعت قبل نهاية هذا الشهر ، ونتيجة لدخول اسبانيا طرفا فى ذلك الصراع الذى نشأ فى ذلك الوقت بين فرنسا وأبطال الريف .

الفصل السابع

تضارب المصالح مع فرنسا

كانت النتائج التى وصلت اليها التجربة الاسبانية فى شمال المغرب تختلف عن تلك التى تمكن الفرنسيون من الوصول اليها فى منطقة حمايتهم ، بالرغم من أن كلتا الدولتين قد استخدمت وسائل الشدة والعنف مع الأهالى .

كان الفرنسيون قد استخدموا كل ما يمكنهم استخدامه من وسائل القمع والشدة ، وبدرجة فاقت تلك التى عمل بها الاسبانيون ، وتمكنوا بهذه الطريقة من السيطرة على أقاليم المغرب الواحد بعد الآخر ، وقضوا فيها على المقاومة ، وأخذوا فى تطبيق النظام ، وفى تسيير دولاب الأعمال ، بشكل أثار اعجاب بعض السطحيين ، الذين بدأوا يصفقون لسياسة الماريشال ليوتى ، ويشيدون بمهارته فى ادارة منطقته . ولقد ظل هؤلاء السطحيون يصفقون للنظام الاستعمارى الفرنسى فى المغرب الأقصى حتى سنة ١٩٢٥ ، وهى السنة التى اصطدمت فيها فرنسا بقوات جمهورية الريف ، وظهرت تجربتها فى شمال افريقية على حقيقتها ، استعمارية أمام الجميع . ولقد أخذ هذا الصراع بين فرنسا والريف شكلا عسكريا ، وشكلا سياسيا ، ونتيجة لتضارب المصالح ، وبوضوح ، بين الاتجاه الاستعمارى وحركات الكفاح الوطنى . وكان رجال الاستعمار الفرنسيون واثقين من أن فشل قواتهم فى رد هجوم أبناء الريف الى خارج منطقتهم سيكون بداية لانهاء نظام الحكم الاستعمارى الفرنسى فى كل شمال افريقية ، وأنه سيؤثر على

بقائهم فى تونس ، وسيؤثر حتى على بقائهم فى الجزائر نفسها ، التى كانوا يعتبرونها فى ذلك الوقت أرضا فرنسية .

وكانت فرنسا قد سارت على سياسة خاصة فى منطقة حمايتها فى المغـــرب الأقصى ، وحاولت أن تفرق بين عناصر الأمة التى وحد الله بينها . ووجدت فرنســـا أن المغرب يتكون من عناصر عربية ، وعناصر مسلمة وبربرية . واذا كان العرب يســـكنون السهول فان البربر كانوا يعيشون على المرتفعات وفوق الجبال . واستندت فرنسا الى هذا الاختلاف العنصرى لكى تفيـــد من الموقف ، وتفرق بين الأهالى ، رغم ادعائها العمل على توحيد كل بلدان المغرب العربى تحت ادارة أوربية موحدة .

وكان رجال الريف فى المنطقة الاسبانية من المغرب يتكونون من عناصر تسمى الأمازيغ ، ويشبهون غيرهم من قبائل رجال الأطلسى الذين احتفظوا بلغاتهم الأصلية ، ولهجاتهم المحلية ، الى جانب العربية التى اكتسبوها وأحسنوها واعتزوا بأنها لغة القرآن .

وكانت الرغبة فى المحافظة على التقاليـــد ، واحترام الآباء والأجداد ، هى التى دفعت سكان الجبالا الى الاحتفاظ بلهجات أجدادهم ، وان كانت هذه التقاليد لا تؤثر فى عشقهم لحريتهم السياسية ، ولا فى طبيعتهم الاســـتقلالية ، بل كانت تدعمها ؛ اذ أنها كانت قد أصبحت من الصفات الأساسية لسكان هـــذه المناطق .

واعتقدت فرنسا أنه يمكنها الادعاء بتأخر مســـتوى سكان الجبالا ، وتفشى الجهـــل فيما بينهم لكى تحاول كســـبهم الى جانبهـــا ، بدعوى دفاعها عنهم ضد العـــرب . ونسيت فرنسا أو تناست أن ســـكان الجبـــالا كان غالبيتهم يعملون فى الرعى ، ويتنقلون على المرتفعات ، وأن سكان الوديان كانوا قد توطنوا ، وأخذوا يعملون فى الزراعة ، نسيت فرنسا أو تناست أن تغير وسائل الانتاج هو العامل الأساسى فى تطوير المجتمع الانسانى ،

وأن هذه الفروق الموجودة بين أبناء المغرب كانت فروقا مصطنعة ؛ اذ أن شخصيتهم العامة كانت تتمثل فى الاسلام وتوحيد الله .
وعلى أى حال فان فرنسا قد ضخمت من عوامل الفرقة المصطنعة ، حتى تتمكن من الانفراد بجزء هام من الشعب ، تقطع صلته ببقية الأمة ، وتطبق عليه القوانين الفرنسية ، وتعلمه اللغة الفرنسية ، وتشجع بعثات التبشير المسيحية فى مناطقه ؛ كما فعلت فى بعض مناطق الجزائر مع الآباء البيض ، وان كان ذلك على نطاق ضيق .
ولقد وصل الأمر ببعض العناصر الفرنسية المتطرفة الى حد التبجح حين ذكروا أن الاسلام والعروبة قد فشلا فى خلال اثنى عشر قرنا من الزمان فى غزو قلوب وعقول سكان الجبالا أو البربر ، وأن اسلامهم ليس أكثر عمقا من جلدهم . وسايرت فرنسا هذا الاتجاه حين قررت سياستها التى أعلنت فيها أنها ستحافظ على نظام الحضارة الذى وجدته عند وصولها الى المناطق التى اعتنقت الاسلام وتكلمت العربية ، ولكنها لن تساعد الاسلام على الانتشار ، بعد ما دفعته من دماء وأموال ، بين رجال يمكنهم أن يصبحوا فرنسيين .

وتمكن الجنرال ليوتى من اجبار الحكومة المغربية فى ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ على اصدار مرسوم أو ظهير يساير هذا الاتجاه ، ويعلن أن المناطق التى تسودها عادات البربر وتقاليدهم ستظل محكومة بهذه العادات وتلك التقاليد . وكانت القوات الفرنسية قد وصلت منذ أشهر الى المناطق الجبلية ، وصعب عليها أمر التوغل فيها . وكانت هذه السياسة تعنى رفض تطبيق النظم الاسلامية على سكان الجبالا ، خوفا من أن يؤدى مثل هذا التطبيق من جانب دولة حديثة الى زيادة انتشار اللغة العربية ، وانصهار المغاربة جميعا سويا . ولقد أسرع الفرنسيون بتنظيم ادارات خاصة فى كل منطقة من مناطق الجبال تخضع لهم ، وأنشأوا فيها مجالس محلية ، وطبقوا فيها العرف والتقاليد فى التقاضى ، وأنشأوا عددا من المدارس لتعليم أبناء سكان الجبال ، ويدرس

فيها عدد من الفرنسيين وبعض من القبائليين من الجزائر . وأصبحت اللغات الرسمية فى هذه المناطق هى اللغة الفرنسية واللهجات البربرية ، رغم اختلاف لهجة القبائليين الجزائريين عن لهجات أبناء الجبال فى المغرب الأقصى ، سواء أكان ذلك مع الشلوح فى الجنوب ، أم مع سكان الأطلس المتوسط ، أم مع الريفيين والأمازيغ فى الشمال . والمهم هو أن اللغة العربية قد أبعدت عن هذه المدارس فى نفس الوقت الذى أبعد فيه الفرنسيون تطبيق الشريعة الاسلامية عن هذه المناطق كذلك . وهدفت فرنسا من وراء هذه السياسة الى خلق بعض الجزر البربرية . وسط ذلك المحيط العربى الاسلامى فى شمال افريقية ، ويمكن لرجال التبشير أن يأخذوا فى النشاط داخل هذه الجزر . ولكن ظهور الأمير عبد الكريم قلب هذه السياسة رأسا على عقب ، ووجدت فرنسا فيه قائدا وزعيما يعتز باسلامه ولا يخضع للاستعمار ، ويكافحه ويعمل على القضاء عليه ، وبيده .

وجاءت العوامل العسكرية والاستراتيجية لكى تظهر التضارب بين مصالح فرنسا ومصالح القوة التحررية النامية فى شمال المغرب ، وخاصة فى سنة ١٩٢٤ . وكان الفرنسيون قد أتموا فى أوائل هذا العام احتلال اقليم وزان ، الواقع فى السهول المطلة على المحيط الأطلسى ، والمجاور للحد الغربى المنطقة الاسبانية . أما فى الشرق فانهم كانوا يسيطرون على ممر تازا الذى كان يفصل قبائل الأطلس ، والتى لم تكن قد خضعت بعد للفرنسيين ، عن قبائل الريف الثائرة . وكان الفرنسيون قد زادوا من نشاطهم فى الثلاث السنوات الأخيرة لاكمال احتلال منطقة نفوذهم المغربية ؛ ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد الى منطقة أعالى وادى الورغة ، وهى المنطقة الهامة التى تقع بين وزان وتازا ، والى الشمال من فاس . ولقد زاد من أهمية هذه المنطقة الأخيرة فى هذه الفترة أن الحدود لم تكن قد رسمت بعد بشكل نهائى بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية هناك . ونفذ الفرنسيون ما يخصهم من خطة احتلال منطقتهم ،

بعد أن اتفقوا مع القيادة الاسبانية على أن تتقدم قوات كل منهما ــ من الجنوب ومن الشمال ــ لاحتلال تلك المنطقة . وتقدم الفرنسيون فى شهر مايو سنة ١٩٢٤ وعبروا أعالى نهر الورغة دون أن يلقوا مقاومة شديدة . وأسرعوا بتنظيم هذه المنطقة وتحصينها ضد أى هجوم قد يأتى من الشمال . كما أنهم قد تمكنوا من أن يصدوا حركة حاولت أن تقوم بها احدى كتائب جمهورية الريف من أعالى وادى اللبن لتطويق هذه المنطقة . وثبت أن فرنسا كانت تبذل مجهوداتها لاحتلال كل المنطقة الخاضعة لنفوذها ، وحسب خطة تقسيم الأراضى ورسم الحدود بين المنطقتين الشمالية والجنوبية ، وفى الوقت الذى كان عبد الكريم يعمل فيه على تدعيم استقلال الوطنيين ، وفى كل من المنطقتين . ذلك أن الأمير عبد الكريم الخطابى كان لا يعترف بوجود مثل هذا الخط الذى كان يمر وسط أراضى القبيلة الواحدة ، والذى كان يقسم بين رجالها . ولذلك فان تضارب المصالح بين فرنسا وعبد الكريم قد أصبح واضحا ظاهرا .

وزاد الطين بلة فى ذلك الوقت اعلان الماركيز دى استيلا قراره بسحب جميع المواقع الاسبانية من الداخل صوب الساحل . وحينما تقدمت القوات الفرنسية شمالا لم تتصل بأية قوات اسبانية ، بل وجدت نفسها فى مواجهة قوى الثوار من أبناء الريف، وتمكن الثوار فى عمليات كثيرة من اذاقة مرارة الهزيمة للقوات الفرنسية . وأصبحت الجبهة الشمالية للقوات الفرنسية مكشوفة . وسرت اشاعات عديدة بأن فرنسا ستواصل هجومها شمالا ، داخل المنطقة الاسبانية ، التى أخلى داخلها من الحاميات . ولقد اضطر الماريشال ليوتى الى أن ينفى رسميا وجود أية نية لدى حكومته للتوسع فى المنطقة الاسبانية ؛ وأعلن أنه كان يأمل دائما فى العمل فى وفاق تام مع الاسبانيين ، ولكن تغيير الاسبانيين المستمر لسياستهم يصعب عليه العمل معهم . وشرح أن العمليات الفرنسية فى شمال الورغة كانت تقع طبقا لخطة مشتركة ، وأشار الى فشل

الاسبانيين فى القيام بتنفيذ ما يخصهم من هذه الخطة المشتركة ، وتأسف على قرارهم بالانسحاب صوب الساحل . ولكن الماريشال ليوتى ادعى أن أبناء الريف كانوا يهاجمون المنطقة الفرنسية ، وأن الفرنسيين كانوا لا يقدرون على الدخول الى المنطقة الاسبانية لمعاقبتهم . وأشار الى أن فشل الاسبانيين فى اخضاع منطقتهم يزيد من الاعباء الملقاة على عاتق فرنسا فى منطقتها . ولسنا نعرف تماما ما اذا كان الماريشال يرغب فى ذلك الوقت فى التدخل فى المنطقة الشمالية ، أو الافادة من فشل الاسبانيين أمام ثوار الريف . ولكن مما لا شك فيه أن المقيم الفرنسى العام فى المغرب كان يعمل – بهذه التصريحات – على تهيئة الرأى العام لأمكانيات القيام بعمليات هجومية فى الشمال ، ويحتفظ لنفسه بخط الرجعة فى حالة قيامه بمثل هذه العمليات ، حتى وان كانت تصريحاته هى مجرد عمليات « جس نبض » لمعرفة رد الفعل فى كل من اسبانيا وانجلترا ، والتى كان يهمها عدم وصول القوات الفرنسية الى موانى المغرب الشمالية ، والقريبة من جبل طارق .

ولقد زادت الصعوبات أمام الاسبانيين مع اشتداد هجمات المغاربة عليهم ، فقرر الفرنسيون انشاء خط دفاعى ثابت ، للدفاع عن منطقتهم ، ولكى يمنعوا به هجوم أبناء الريف ، وتوغلهم فى منطقة النفوذ الفرنسية . وتقدم الفرنسيون فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ فى اتجاهين : الأول فى اتجاه شمال الورغة ، والثانى فى الركن الشمالى الشرقى للمنطقة الاسبانية . وطلب الماريشال ليوتى الى فرنسا فى شهر أكتوبر الاسراع فى ارسال الامدادات اليه، تلك الامدادات التى كانت لازمة لتحصين المناطق التى احتلها فى شمال الورغة ؛ ثم أعلن ليوتى أن أهالى الريف يواصلون اعتداءهم على الأراضى التى لم يتم احتلالها بعد من المنطقة الفرنسية ، وأعلن أنهم يعملون على اغراء القبائل فيها على اعلان الثورة ، وعلى الهجوم على الفرنسيين . ولقد اتخذ الماريشال هذه الادعاءات أساسا يستند اليه ، ولكى يعلن أن فرنسا قد تقرر الهجوم على المنطقة

الشمالية ، ومطاردة أهل الريف ، حتى فى داخل الحدود الاسبانية. وذكر الماريشال أن الحكومة الفرنسية تعتبر أن الاسبانيين ملزمون بادارة منطقتهم ، وبالعمل على استتباب الأمن والنظام فيها ، وأن فشلهم فى تنفيذ ذلك يعتبر مخالفا لتعهداتهم الدولية ، ويضع الأقاليم الشمالية من منطقة الحماية الفرنسية فى موضع صعب ، نتيجة لحالة الفوضى التامة الموجودة فى الناحية الأخرى من الحدود . ولم ينس الماريشال أن يذكر أن العالم الاسلامى بأكمله كان يرقب الحرب الدائرة رحاها فى منطقة الحماية الاسبانية بكل اهتمام ؛ وأشار الى أن الثورة المعلنة هناك كانت تهدد نفوذ كل الدول الأوربية ذات المصالح الاستعمارية فى البلاد الاسلامية ، وهى تهدد فرنسا فى شمال افريقية بأكملها ، وتهدد بريطانيا فى ممتلكاتها الاسلامية ، وحتى فى الهند .

لقد فسرت فرنسا المادة الأولى من اتفاقيتها مع اسبانيا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ على أنها ملزمة ، فى الوقت الذى نظرت فيه حكومة مدريد الى هذه المادة على أنها مجرد حق لها ، ولها مطلق الحرية فى تطبيق نص هذه المادة أو عدم تطبيقه ، وبالصورة التى تحلو لها ، وحسب امكانياتها . ولقد قامت الحكومة الفرنسية بطلب توضيحات وتفسيرات من حكومة مدريد حول نياتها المقبلة تجاه المناطق التى يجرى سحب القوات الملكية منها ، وحتى تتمكن الدولتان الاستعماريتان من توفيق المجهودات ، والتعاون معا أمام الصدمات التى أصابت النفوذ الاستعمارى فى هذه المنطقة الهامة من العالم .

ولكن اذا كانت هذه هى الطريقة التى كانت الدول الاستعمارية تحاول بها معالجة الموضوع ، فقد كان للقوى الوطنية كلمة حق تقولها فى تقرير مصيرها ومصير بلادها . ولقد صمم الأمير عبد الكريم الخطابى على ضرورة تحرير المناطق التى قامت فرنسا باحتلالها فى خلال سنة ١٩٢٤ ، وبقوة السلاح . وظهر بذلك

التضارب بين المصالح ، والتضارب بين اتجاهات القوى ، الوطنية والاستعمارية ، فى المنطقة . كما وضحت صعوبة التفاهم بين فرنسا ورجال الريف ، وصعوبة المحافظة على السلم بينهما . ولقد كان من الصعب على كل من الطرفين ، الوطنى والاستعمارى ، قبول أنصاف الحلول ، خاصة وأن فرنسا لم تكن لتقبل ترك عبد الكريم الخطابى يستمر فى تحرير هذا الركن الهام من العالم ، ويهدد نفوذها فى كل شمال افريقية . وكان هذا يستتبع وقوع الاصطدام ، وبشكل حتمى ، بين المعسكرين .

ورغم كل ذلك فلقد حاول الأمير عبد الكريم الخطابى أن يفتح باب المفاوضات مع الفرنسيين . وأرسل أخاه الأمير محمد الخطابى الى باريس . ولقد اتصل هذا الأمير ببوانكاريه ، وبغيره من الشخصيات الفرنسية ، وحاول أن يصل معهم الى تفاهم على الخطوط العامة . ولقد اعترف بانليفى بهذه الاتصالات ، رغم أن بوانكاريه قد أنكرها . وصرح أرستيد بريان ، وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت ، بأن موضوع هذه المباحثات لم يسجل فى أية سجلات رسمية . والواقع أن فرنسا قد رفضت اعطاء صبغة رسمية لهذه المباحثات ، حتى لا تعتبر هذه المباحثات اعترافا دوليا بجمهورية الريف ، وحتى لا يؤثر ذلك على سلطة سلطان المغرب وحقوقه الاقليمية ، وحتى لا يؤدى ذلك الى وقيعة بين فرنسا واسبانيا . وبعد مباحثات باريس أحال الفرنسيون الوفد المغربى الى الماريشال ليوتى ، للتفاهم معه فى فاس أو الرباط . ولقد اتفق كل من رجال الريف والفرنسيين على ضرورة وصول مندوب من طرف الأمير عبد الكريم الخطابى الى فاس ، وعلى حضوره ومقابلته لمدير المخابرات العسكرية فى المغرب فى ذلك الوقت ، وبعد أن قامت فرنسا بعملياتها العسكرية فى منطقة وادى الورغة . ورغم أن السلطات الفرنسية فى المغرب لم تعترف رسميا بجمهورية الريف ، الا أنها بحثت مع مندوبى هذه الجمهورية أسماء القبائل التى تعتبر داخلة فى هذا الجانب أو ذاك من الخط ؛ وأكدت

للمندوبين الآتيين من الشمال أنها لا تبيت النية لتعـــدى خط الحدود . وعلى أية حال فان هذه الســلطات قد تعرضت لذكر قبائل بنى سروال ، وذكرت أنهم يدخلون داخل منطقة النفـوذ أو الحماية الفرنسية ، وذكرت أنها قد وعدت هـــذه القبـائل بمساعدتها ، حتى تتمكن من مقـــاومة فرض الأمير عبد الكريم لسيطرته عليها .

والواقع أن موقف الحكومة الفرنسية فى باريس كان يتلخص فى ضرورة عدم التراجع عما حصلت عليه فى المغرب الأقصى ، وفى عدم القيام بأى عمل قد يسىء الى العلاقات الودية القـائمة مع اسبانيا . أما موقف السلطات الفرنسية فى المغرب الأقصى فكان يتلخص فى محاولة مد النفوذ الفرنسى الى أقصى درجة ممكنة ، والعمل على التعاون مع السلطات الاسبانية على منع زيادة نفوذ جمهورية الريف ، واتساع رقعتها . ولقد وجد الأمير عبد الكريم الخطابى فى هذه المواقف نية غير ودية ، تعمل على تحدى أبسط مبادىء الحرية ، التى لا يدين الا بهـــا . ولم يتراجع الأمـــير عبد الكريم ؛ وقبل أن يسوى نزاعه مع اسبانيا ، أخذ فى تحدى عدو جديد ، قوى ومنظم . وأشعرته انتصاراته على اسبانيا بأن فى وسعه ، ان تطلب الأمر ، أن يقف كذلك فى وجه فرنسا ، رغم أنها كانت أكبر دولة عظمى حربية باقية فى العالم الغربى فى ذلك الوقت . ولقد كان الصدام ، وكان لعبد الكريم الخطابى فيه أسباب واقعية ، وحجج منطقية ، تدفعه الى النزول اليه .

الفصل الثامن

الزحف صوب الجنوب

كان معنى تشبث فرنسا باستمرار احتلالها لأعالى نهر الورغة يجبر الأمير عبد الكريم الخطابى على محاربتها لأسباب اقتصادية وأسباب سياسية لها قيمتها . ذلك أن وادى الورغة كان هو المورد الأساسى للغلال لعدد كبير من أهل الريف ، خاصة وأن اقليمهم كان فقيرا ، وكانت القبائل التى تسكن فى أعاليه من مجموعة قبائل الجبالا ، وكانت الجماعات الشمالية منها قد قبلت الانضمام الى دولة عبد الكريم ، خاصة وأنه قد عمل على تحريرهم من حكم الاسبان . وكان الأمير مضطرا الى توحيد كل منطقة الورغة تحت ادارة واحدة ، خاصة وان عجزه عن تحرير الجزء الجنوبى منها كان يضعف من هيبته أمام الأهالى . وكانت هذه المنطقة تمتاز كذلك بسكنى عدد من أهالى ورجال بنووورياغل فيها ، وهم أبناء قبيلة عبد الكريم الخطابى . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول بأن مسألة النفوذ الفعلى على هذه المنطقة كان أمرا هاما بالنسبة لقائد الريف ، هذا علاوة على أهمية القمح اللازم لتموينه . وكان معنى انسحاب اسبانيا من داخل الريف هو وقوف عبد الكريم وجها لوجه أمام السلطات الفرنسية ، وباعتبار أنهما هما الدولتان أو السلطتان الموجودتان فى المغرب الأقصى فى ذلك الوقت . وكان من الصعب على هاتين الدولتين أن يعيشا جنبا الى جنب ، نظرا لأنهما كانا يمثلان قوى مختلفة ومتضادة : السيطرة الغربية من ناحية ، ومحاربة تلك السيطرة بأسلحتها التى تحملها أيد وطنية من ناحية أخرى . وكانت فرنسا ترى فى كل يوم زيادة انضمام رجال

القبائل الى عبد الكريم ، وكان هذا الأمر يثيرها ، ويجعلها تخشى على مركزها فى المغرب الأقصى ، وفى كل شمال افريقية .

ولقد أعلن بانليفى فى مجلس النواب يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٤ حين وقف يدافع عن سياسة الحكومة ضد الأمير عبد الكريم أن على كل فرد قبل أن يفكر فى السلم أن يعرف ويعلم جيدا بأن فرنسا تقف مع كل قواتها فى المنطقة الواقعة بين الورغة وفاس ، وحتى اذا كان هناك من الفرنسيين من يرغب فى التراجع أمام مثل هذه السياسة فعليهم أن يقدروا نتائج موقفهم السلبى . وأكد أن فرنسا كانت مهددة بالاضطرار الى اخلاء فاس ، بل ومهددة أيضا بفقد كل المغرب الأقصى ، والجزائر وتونس كذلك . ولقد أعاد الكرة مرة جديدة فى خطاب آخر له فى ٣ أغسطس ، وأعلن أن على فرنسا أن تدافع عن مركزها فى المغرب الأقصى ، أو أن تقبل فقدانها لكل شمال افريقية ، وفى ظروف مهينة : « سيكون ذلك آخر امبراطوريتنا الاستعمارية ، وآخر استقلالنا الاقتصادى ، الذى هو أمر محال بدون مستعمرات » وسيكون آخر « هيبة ونفوذ لفرنسا فى العالم » . والحقيقة أن الحرب بين فرنسا وعبد الكريم قد هزت الامبراطورية الفرنسية فى كل شمال افريقية . وكانت فترة دقيقة فى تاريخ العالم ، تتبع فيها المراقبون السياسيون والخبراء فى الشئون الاستعمارية حركاتها بكل اهتمام .

أما من ناحية الأمير عبد الكريم الخطابى فمما لا شك فيه أنه كان يقدر قيمة الأخطار التى تنتظره من الهجوم صوب الجنوب ، ومن مقابلة قوات الامبراطورية الفرنسية . ولكنه عرف كذلك عدم وجود توازن بين القوات الفرنسية من ناحية ، وبين امكانية انتشار حركة خروج القبائل الواقعة خلف الخطوط الفرنسية على طاعتهم بمجرد نجاحه من ناحية أخرى . وكان عبد الكريم يعرف أن الحروب قد أنهكت قوى فرنسا ؛ وأن أهلها أصبحوا لا يفكرون فى حروب جديدة ؛ وأن فرنسا تعيش فى ضائقات مالية ؛ وأن الشيوعيين

سيقابلون سياسة الدخول فى حرب استعمارية جديدة بمقاومة عنيفة ؛ وأن الاشتراكيين سيقاومون نفس السياسة بقوة أقل ، ولكن بعدد أضخم . كان كل ذلك فى صالح الأمير عبد الكريم ، وصالح رجال الريف . وكان على عبد الكريم بعد ذلك أن يعتمد كذلك على المصاعب التى ستواجه فرنسا ، حتى فى حالة نجاح قواتها ووصولها الى الخطوط الاسبانية ، التى لم تكن قد تحددت بعد . لقد كانت كل هذه العقبات الجغرافية والدبلوماسية والسياسية والاقتصادية تصعب على فرنسا أمر تعقب رجال عبد الكريم الخطابى فى الممرات الجبلية ، وفى الأوكار الواقعة شمالا ، وحتى البحر المتوسط ، وأن تظهر أمام العالم بمظهر المنتصر ، اذ أن كل انتصار جزئى لها فى احدى المعارك كان سيظهرها بمظهر المنهزم العاجز عن القضاء على خصمه ، وأمام كل العالم ، وسيظهر الأمير عبد الكريم فى نفس الوقت بأنه قد نجح فى تحدى أعظم قوات برية موجودة ، ونجح فى الانسحاب برجاله فى سلام . ولقد بلغ عدد القوات الفرنسية فى المغرب فى خريف سنة ١٩٢٤ ما يقرب من ٦٥٫٠٠٠ جندى ، بما فى ذلك جنود المستعمرات ، وجنود الفرقة الأجنبية . ولقد طلب الماريشال ليوتى من حكومة باريس فى ١١ ديسمبر ارسال الامدادات اللازمة له على مرتين : الأولى فى شهر فبراير ، والثانية فى أواخر شهر أبريل ؛ ثم عاد وكرر طلبه ملحا بعد عشرة أيام ، وأعلن فى نفس الوقت أنه سيتخذ موقفا مدافعا ؛ ونفى كل فكرة ممكنة للدخول فى منطقة النفوذ الاسبانية التى شبهها بخلية نحل خطيرة على قواته ، وذكر أن دخول المنطقة الاسبانية سيتعارض مع الاتفاقيات الدولية .

ولكن علينا ألا ننسى أن المادة الثانية من اتفاقية ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ كانت قد وصفت خط الحدود فى قطاع الورغة بأنه يقطع النهر تحت منابعه ، تاركا أعالى المياه فى المنطقة الاسبانية ، ثم يتبع فى اتجاه الغرب خط المرتفعات التى تشرف على الضفة اليمنى (أى الضفة الشمالية) لذلك النهر ، ويتبع الحدود

الشمالية للقبائل التى تسكن الوادى بقدر المستطاع . ولكن هذه الحدود بقيت غير محددة بشكل نهـــائى ، نظرا لجهـــل كل من الاسبانيين والفرنسيين على حد سواء بخطوط تقسيم المياه ، وبالحدود القبلية فى ذلك القطاع . وكان من السهل قيام مشكلات دبلوماسية بين الدولتين الاستعماريتين فى حالة ما اذا تقدمت احداهما وزحفت قواتها واحتلت المواقع القريبة من تلك المنطقة .

وكان خط تقسيم المياه بين الورغة والبحر المتوسط واقعا بالفعل فى أيدى قبائل الريف ، بينما كان الخط الفرنسى يقطع القمم والمنحدرات المتتالية والمتوازية ، وسفوح الجبال التى تسير بين الشمال والجنوب ، من خط تقسيم المياه الى ذلك النهر . ولذلك فان الفرنسيين كانوا يواجهون قمم الجبال ، ويمر النهر من خلفهم ؛ ومهما حاولوا انشاء الطرق أو القناطر فقد كان من السهل قطعها ونسفها . أما الدشم ذات المزاغل المتعددة على طول الخط الفرنسى فكان من الســـهل على أبنـــاء الريف محاصرتها والاستيلاء عليها ، الواحدة بعد الأخرى ، كما حدث فى الخـــط الفرنسى الاسبانى من قبل . ولقد كان فى وسع رجال الريف بمجرد تسللهم الى ذلك الخط المحصن أن يعملوا على اثارة القبائل النازية وراء الفرنسيين ، على قوات الاحتلال ، التى ستصبح محاصرة بهذا الشكل . وكان فى مقدروهم كذلك أن يواصلوا زحفهم الى ثلاث مواقع استراتيجية فى غاية الأهمية : الأول هو موقع وزان فى الشمال الغربى ، وهو مركز اسلامى مهم ؛ والثانى هو فاس فى الوسط ، وهى عاصـــمة المغرب التاريخية ومركز العلم والعلماء والطلبة والتجار ؛ والثالث هو تازا فى الشرق ، وهى همزة الوصل بين الجزء الذى احتلته فرنســـا فى المغرب الأقصى وبقية مناطق احتلالها فى شمال افريقية . وكانت هناك منطقة تقع الى الجنوب من تازا لم يكن الفرنسيون قد نجحوا فى اخضاعها بعد ؛ وكانت تليها منطقة أخرى الى الجنوب منها ، تقع فى الأطلس المتوسط ، ولم يكن الفرنسيون قد تمكنوا من الوصول اليها بعد . ولقد كان فى

وسع رجال الريف ــ فى حـــالة استيلائهم على تازا ــ أن يقطعوا خـــط السكة الحـــديد الموصـــل بين كل من الرباط وفاس وبين الجزائر ، بل وأن يثيروا قبائل الأطلس ضد الفرنسيين . ولقد كان الخط الفرنسى الذى يطوق الأطلس فى ذلك الوقت يشبه حدوة الفرس المفتوحة الى الجنوب ، وكان مهددا بالانكسار فى نقطة هامة منه . كما أن التهديد بفتح جبهة جديدة ضـــد الفرنسيين فى منطقة الأطلس ، وفى نفس الوقت الذى تتقدم فيه قوات الريف صوب الجنوب ، كان يهدد بجعل بقاء الفرنسيين فى المغرب ضربا من المستحيل .

وعلاوة على استناد الأمير عبد الكريم الى موقف استراتيجى فى صالحه ، اعتمد هذا القائد على مزايا تكتيكية واضحة ؛ ذلك أن الميدان الجديد للعمليات كان يشبه المنطقة الاسبانية الى حد كبير ، اذ أنه كان اقليما قاحلا يفتقر الى الأشجار والغابات ، ولكن تنتشر فيه الشجيرات المليئة بالأشواك ، وتكثر فيه المنحدرات ، وتقل فيه المياه . وكانت هذه هى أصلح أرض يمكن لأبناء الريف أن يحاربوا فيها ، اذ أنهم كانوا قد تدربوا فى بلادهم على آخر الفنون الحربية الأوربية التى تصلح لتلك الأراضى . وكان فى استطاعة مجاهدى الريف أن يتخذوا الســـواتر بمنتهى السرعة ؛ ورغم تضاريس الأرض فانهم كانوا جنود هجوم ممتازين ، اذ أنهم قد تمرنوا على النوم فى العراء ، ولم يحملوا من المتاع ما يعوقهم عن الحركة ، واقتصروا على حمل بعض الطعام داخل عباءاتهم ، علاوة على بنادقهم وذخائرهم . وكان رجال الريف قد زودوا أنفسهم من الاسبانيين بكل ما يلزمهم وأكثر ، من بنادق ومدافع رشاشة وذخائر . ورغما عن نقص المدفعية ، وعدد وجود قوة جوية لدى رجال الريف ، فان هذه الأسلحة لم تكن أساسية فى هذا الوقت ، وفى مثل هذه الأرض . وكانت قيادة قوات الريف قد استخدمت أجهزة الهاتف ، وأصبحت على اتصال مستمر بوحداتها المتحركة المختلفة ، مما سمح لها بتنفيذ عمليات مشتركة فى ميدان واسع ،

مثلها فى ذلك مثل الأوربيين ، ان لم تتفوق عليهم . وكانت قيادة المجاهدين قد أنشأت مخازن للأسلحة والذخائر فى كل ناحية ، ويمكن استدعاء المقاتلين من رجال القبائل اليها بسرعة ، حيث يسلحون ويرسلون الى الجبهة المعينة لهم ، ويشتركون فى المعركة فى التو . ولذلك فان القـــوات الريفية كانت تعتمد على مرونة واضحة ، وسيولة تامة فى التجنيد والتعبئة ، وبشكل يسمح لها بمواجهة أكثر من واجب ، والقيام بتنفيذه فى وقت قصير . وكان عدد قوات مجاهدى الريف يختلف تبعا لذلك من يوم الى يوم ، ومن فصل الى فصل . ولكن جمهورية الريف أفادت من ذلك أكثر فائدة ، وخاصة فى مسألة دعوة الرجال للخدمة كلما استدعى الأمر ، ثم قيامها بتسريحهم بعد انتهاء العمليات ، لاتمام أشغالهم فى الحقل . ولم يحتفظ الأمير الا بعدد بسيط من مجاهدى القبائل بشكل مستديم ، وكانوا يعتبرون جيشا دائما باق تحت السلاح ، وتصرف له الدولة أرزاقه وأقواته . وتراوح عدد رجال هذا الجيش بين ستة آلاف وعشرة آلاف مقاتل ، فى الوقت الذى بلغت فيه قوات المجاهدين ما يقرب من ٦٠٫٠٠٠ رجل . ولقد اعتمدت قوات الريف على تكتيك خاص وضعه لها الأمير محمد عبد الكريم ، أخو بطــــل الريف ؛ وكان هذا التكتيك يتلخص فى ارســـــال عدد من المتطوعين الى ما وراء خطوط العدو ، حتى يعملوا على اثارة القبائل ، وكانت هذه العملية تساعد على زيادة عدد المقاتلين باستمرار فى أثناء زحفهم . وكانت بعض القبائل التى تقترب العمليات الحربية من أرضها تنضم بكل رجالها الى صفوف المقاتلين ؛ وسرعان ما تعين عليهم القيـــــادة ضـــــباطا ، وضباطا للصف ، حتى تسيطر عليهم فى العمليات . وكان زحف الجيش خلف تلك « الستارة » المكونة من رجال القبائل تسمح له بحماياتهم فى حالة تقهقرهم ، وتسمح له بمقاومة أى هجوم مضاد يقوم به العدو ، الذى سيجد نفسه ـ بعد مطاردة بسيطة لرجال القبائل ـ ملتحما مع خطوط نظامية تعيد اليه ذكرى الحرب العالمية

فى أوربا . ولقد وجد الماريشال ليوتى نفسه أمام سلاح مشاة ممتاز ، يمكنه أن يقف على الأقل ندا لأى جيش حديث فى العالم ، من حيث الشجاعة والضبط والربط ، والأخلاق وحسن المناورات، والتسديد فى اصابة الهدف .

ولقد بدأ رجال الريف هجومهم فى ١٣ أبريل سنة ١٩٢٥ وأدى ذلك الى رد فعل قوى فى فرنسا . وكانت قوات فرنسا فى المغرب الأقصى فى ذلك الوقت تبلغ ٧٢٫٥٠٠ جندى ، لم تكن من بينها الا خمس كتائب فرنسية ، وكانت البقية من الجنـود السود ، وجنود شمال افريقية ، وجنود الفرقة الأجنبية التى كان ٤٠٪ من رجالها من الألمان ، ٤٠٪ من الروس البيض فى ذلك الوقت . ولقد تباطأ عن ارسال فرنسا للقوات الجديدة التى تطلبها هذا الموقف فى المغرب لمدة ثلاثة أشـــهر ، وتوغل رجال الريف فى الخطوط الفرنسية ، وأثاروا القبائل خلفها ؛ فاضطرت القيادة الى أن تخلى جميع المواقع التى انقطعت صلتها بقواعدها . ولقد ظهر تأزم الأمر بشكل واضح فى الفترة الواقعة بين ٢٦ يونيو ، ٦ يوليو فى قطاع تازة ، حين حاول رجال الريف أن يصلوا الى المناطق التى لم تكن قد خضعت بعد للفرنسيين ، والتى كانت تقع الى جنوب هذه المدينـة ؛ ويصلوا كذلك الى منطقة الأطلس ، التى لم تكن القوات الفرنسية قد دخلت اليها بعد . حقيقة أن هذه المحاولة من جانب رجال الريف لم تكلل بالنجاح ؛ وخاصة بعد المعركة العنيفة التى خاضتها القوات الفرنسية فى ذلك الوقت ، وفى هذا الموقع ، ضد أبطال الريف ؛ ولكن فرنسا اضطرت الى اخلاء تازا تماما من الأهالى الأوربيين ، حتى تتمكن من الحصول على حريتها التامة فى العمليات الحربية . ورغم ذلك فقد تمكن أبطال الريف من قطع السكة الحديد فى المنطقة الواقعة بين تازا وجرسيف .

ولقد أدت معركة تازا الى هز الرأى العام الفرنسى ، بشكل أجبر الحكومة الفرنسية على أن تغير قيادتها ، وأن تبدأ فى التو فى

عمليات واسعة النطاق ، خاصة وأنه قد وضع أمام العالم امكان اتحاد رجال الأطلس مع رجال الريف فى ثورة عارمة ضد الفرنسيين فى المغرب ، وبشكل يقطع بينهم وبين بقية الفرنسيين فى شمال افريقية . ولقد عينت فرنسا الجنرال ناولان قائدا عاما لقواتها فى المغرب فى ٢٦ يونيو ، وظهر أن الماريشال ليوتى سيحتفظ بالاقامة العامة فقط . ثم عادت فرنسا وأرسلت الماريشال بيتان فى مهمة خاصة الى المغرب فى يوم ١٧ يوليو . وكان على هذين القائدين أن يعملا معا ، مع الماريشال ليوتى ، على تنظيم القوات الفرنسية . وبمجرد انتهاء هذه المهمة أعلن الجنرال ناولان أنه يستعد للقيام بهجوم مضاد ، مستندا فى ذلك الى كل القوات التى وصلته ، وفى تعاون مع الاسبانيين .

وكانت انتصارات الأمير عبد الكريم الخطابى المتتالية على الفرنسيين لمدة ثلاثة أشهر تثير الحماس فى جميع أرجاء المغرب ، وجميع انحاء العالم العربى والاسلامى ، وكانت تثير الحنق فى فرنسا نفسها . وكانت فرصة فريدة لكى يشن الحزب الشيوعى الفرنسى هجوما عنيفا على البورجوازية الاستعمارية ، ويظهر تأييده لقضية الريف ، وعلى أساس انشاء جبهة متحدة بين عمال الدول الغربية، وشعوب الدول غير الأوربية ، والتى كانت جزءا من برنامج المؤتمر الشيوعى العالمى الثالث . وكما أن رجال الريف كانوا يسعون الى اثارة رجال القبائل خلف الجيش الفرنسى ، كان الشيوعيون يحاولون اثارة الشعب الفرنسى ضد الحرب فى المغرب ، خاصة وأن الأمة الفرنسية كانت قد ضحت بالكثير مما تمتلكه لكى تواصل صراع الحياة والموت من أجل بلادها فى الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن ترضى بقبول تضحية جديدة برجالها وأموالها ، وخاصة فى حرب استعمارية ، وعلى حدود آخر مستعمراتهم ، وحدود لم تكن قد حددت بعد . وكان الفرنسيون يعرفون أن الحرب المغربية تشبه الحروب الأوربية فى عملياتها وفى خسائرها فى الأرواح والأموال ، فازدادت الوجوه شحوبا ، والأعصاب توترا . ولقد

قامت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى باصـــدار بيان فضحت فيه اعتداء الحكومة الفرنسية ، وطالبت بالاعتراف بحكومة الريف ، وبالجلاء عن المنطقة الفرنسية فى المغرب . وفى المغرب قام الشيوعيون من الفرنسيين ومن الوطنيين بنفس النشاط ، مما أجبر سلطات الحماية على طردهم الى فرنسا . ولكن نساء فرنسا خرجن فى مظاهرات كبيرة فى اليوم التالى ، وحملن لافتات كتب عليها « لقد أخذتم رجالنا فى الحرب العالمية الأولى ، وتريدون قتل أبنائنا فى الحرب الاستعمارية !!! » وكانت هتافاتهن تطالب بالسلم ، وبالاعتراف بالحرية للرجال الأحرار . ولم يكن فى وسع أحد أن يتهمهن بالشيوعية ، بل انها كانت حركة انسانية ، وتستند الى مبادىء الحق والحرية ، والاعتراف بعدم التمكن من تقديم تضحيات جديدة . لقد أصبحت فرنسا منقسمة على نفسها ، وظهر ذلك الانقسام واضحا ، وبشكل يهدد الأمة . واضطرت الحكومة الى أن تؤكد أمام مجلس الأمة أن سياستها هى سياسة استعمارية ، اذ أن مصالحها وطبيعة تكوينها كانت مع هـــذا المعسكر ، بل كانت فى داخله . وكان على أبناء الريف أن يصمدوا كأبطال أمام قوى الاستعمار الغاشم ، حتى ينتصروا أو يسجلوا اسمهم فى سجل الحركات الخالدة فى التاريخ .

الفصل التاسع

التعـــاون الفرنسى الاسبانى

بدأت فرنسا مفاوضاتها مع اســـبانيا منذ شـــهر يوليو سنة ١٩٢٥ للوصول الى تعاون بين الدولتين الاستعماريتين يقف فى وجه الثورة التحررية الوطنية فى شمال المغرب . وكان هـذا الاتجاه يمثل خطرا كبيرا على الأمير عبد الكريم وعلى دولة الريف ، اذ أنه كان قد عمل حتى ذلك الوقت ضد هاتين الدولتين ، ولكن دون أن يترك لهما فرصة توحيد مجهوداتهما ضده ؛ وكان تكتل القوى الاستعمارية فى وجهه يجبره على بذل مجهودات جديدة .

وبدأت هذه المفاوضات بزيارة بعض الشخصيات السياسية الفرنسية لمدريد ؛ ومعنى ذلك أن فرنسا هى التى بدأت فى أخذ الخطوة الأولى لتنظيم العمليات الحربية ضد الأمير عبد الكريم الخطابى . وكان الرأى العام الاسبانى فى ذلك الوقت مستعدا لقبول التعاون مع فرنسا ، وخاصة بعد خسائر اسبانيا الكبيرة فى منطقة الريف ، وشعور اسبانيا بصعوبة قيامها بالعمليـــات الحربية ضد الريف بمفردها بعـــد هزائمها المتكررة ؛ كما أن الانتصارات التى سجلها الثوار ضد القوات الاستعمارية الفرنسية فى الجنوب كانت تساعد على هذا الاتجاه ، وشعر كل من الاسبانيين والفرنسيين بتقارب فى الاتجاه ، وضرورة توحيد القوى ، بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة على أيدى الثوار .

وكانت اسبانيا تخشى من نتائج انتصارات رجال عبد الكريم على القوات الفرنسية فى المغرب ، وتخشى منها على جنوب بلادها ، وعلى اقليم الأندلس . وكانت اسبانيا لا ترضى من ناحية أخرى

بترك حرية التصرف المطلقة لفرنسا ضد قوات الأمير عبد الكريم ، وخاصة اذا ما نجحت القوات الفرنسية فى الدخول الى المنطقـــة الاسبانية . ولذلك فان حكومة مدريد قد رحبت بمفاتحات فرنسا لها ، ووافقت على عقد مؤتمر اجتمع فى يوم ١٧ يونيو ، وظل فى عمله حتى يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٥ .

وكانت أولى المسائل التى بحثها هذا المؤتمر هى ضرورة منع وصول المواد الحربية والذخائر الى دولة عبد الكريم ، ووقعت الدولتان الأوربيتان على اتفاقية خاصة فى ٢٤ يونيو ، تقضى بوضع رقابة بحرية مشتركة على معظم السواحل المغربية ، وتشتمل على جزء كبير من سواحل المنطقة الخاضعة للنفوذ الفرنسى . وسمحت هذه الاتفاقية للسفن الاسبانية الحربية بالالتجاء الى بعض الموانى الجزائرية ، كما سمحت للسفن الفرنسية بالالتجـــاء الى بعض الموانى الاسبانية ، للتمون منها . ولقد أبلغت هذه الاتفاقية الى الدول الأوربية بعد يومين من التوقيع عليها . وتلى ذلك التوقيع على اتفاقية ثانية فى يوم ٢١ يوليو لمراقبة التهريب من منطقة طنجة الدولية . ولقد طلبت اسبانيا منحها حق تعقب الثوار الى داخل المنطقة الدولية ، وهددت باعادة فتح مسألة طنجة التى كانت الدول الأوربية قد أنهتها فى شكلها الدبلوماسى فى اتفاقية طنجـــة فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ؛ الا أن فرنسا نصحت اسبانيا بعدم تغيير اتفاقية طنجة فى ذلك الوقت ، حتى لا تثير ضدها مخاوف انجلترا. وكان من نتيجة ذلك أن شاركت انجلترا فى عملية مراقبة سواحل المنطقة الدولية ، وأرسلت أربع سفن حربية لذلك ، ولكن دون أن تشارك فى عملية الحصار المفروضة على سواحل المنطقتين الفرنسية والاسبانية . وعلى أى حال فقد أدى ذلك الى تعاون بريطانيا مع هاتين الدولتين فى تضييق الخناق على قوات الأمير عبد الكريم ، وعلى شعب منطقة الريف .

ولقد كان من المتوقع أن يؤدى التوقيع على هذه الاتفاقيات المتتالية الى منع وصول الامداد الى الأمير عبد الكريم الخطابى ؛

والواقع أن عملية الحصار البحرى قد أثرت على الموقف داخل جمهورية الريف ، الا أن الأمير ورجاله فى ذلك الوقت لم يكونوا فى حاجة كبيرة الى أسلحة وذخائر تأتى لهم من الخارج بعد أن كانوا قد زودوا أنفسهم بكميات كبيرة منها ، حصلوا عليها من أعدائهم المستعمرين فى ميدان العمليات . وكان من الصعب على عملية الحصار البحرى بمفردها أن تقضى على مقاومة عبد الكريم الخطابى، اذ أن الموقف كان يتطلب القيام بعمليات حربية كبيرة ضده . ولذلك فان فرنسا واسبانيا قد استمرتا فى وضع أسس التعاون بين البلدين ضد أحرار الريف ، وعقدتا اتفاقية جديدة تسمح لطائرات كل منهما بالطيران فوق منطقة نفوذ الأخرى ، وتتعقب تشكيلات الثوار فيما وراء الحدود بين المنطقتين . واجتمع من أجل ذلك الماركيز دى استيلا مع الماريشال بيتان فى سبتة ثم فى تطوان فى أواخر شهر يوليو ، وان كان حق الطيران فوق هذه المنطقة أو تلك ، وحق تعقب الثوار ، قد أثار من جديد مسألة الخط الفعلى لحدود كل من المنطقتين . ورغم أن الفرنسيين كانوا مستعدين فى ذلك الوقت لتحديد هذا الخط فى الحال ، الا أنهم قبلوا وجهة النظر الاسبانية القائلة بالاكتفاء باتفاق مبدئى يرسم خطا مؤقتا ، الى أن يتم الاحتلال الفعلى للمنطقة التى يمر فيها هذا الخط . ويمكننا أن نضيف الى كل هذه الاتفاقيات العسكرية اتفاقية أخرى سياسية ، وقع عليها فى مدريد فى يوم ١١ يوليو ، وتعهدت فيها كل من الدولتين بعدم عقد صلح منفرد مع عبد الكريم ، واتفقتا على الشروط العامة التى لا يمكن قبول أى صلح بدونها . وكانت هذه الاتفاقية السياسية هى أهم ما فى هذه الاتفاقيات ، وأشدها خطرا على الأمير عبد الكريم الخطابى .

ولقد سبق أن ذكرنا أن المفاوضات كانت قد بدأت بين اسبانيا والريف ، وهدفت الى عقد هدنة بين الطرفين ، ولكنها توقفت فى الأسبوع الثالث من شهر مايو نتيجة لبدء المباحثات الفرنسية الاسبانية . ولقد فكرت اسبانيا فى امكانية الافادة من المجهودات

الفرنسية لكى تصفى مشكلة الريف بعمليات حربية ، وبمجهود اضافى بسيط من ناحيتها . وكانت قبائل الجبالا توالى الضغط على تطوان ، كما أن قبائل الأنجارا كانت فى ثورة معلنـــة وراء الخطوط الاسبانية ؛ وظهر أن الانسحاب الى الساحل كان عملية فاشلة ، لن تؤدى الى نتيجة مقبولة فى مدريد ، ولذلك فان اسبانيا قد قبلت المشاركة فى المفاوضات مع فرنسا ، وأعلنت أنها لن تعقد صلحا منفردا مع الريف .

ولقد وقعت محادثات ؛ أو مفاتحات بين اسبانيا والريف من ناحية ، وفرنسا والريف من ناحية أخرى ، فى أثناء المفاوضات الفرنسية الاسبانية نفسها ؛ وان كانت هذه المفاتحات أو المحادثات لم تأخذ شكلا رســـميا ، ولم تؤد الى نتيجة ايجابية . وكانت حكومة مدريد قد أرسلت السنيور ايشيفاريتا لمقـابلة الأمـــير عبد الكريم فى خليج الحسيمة فى ٢٠ يونيو ، أى بعد ثلاثة أيام من بدء المفاوضات الفرنسية الاسبانية . ولم يصطحب هذا السنيور معه أحدا من الضباط الاسبانيين فى هذه المهمة ، اذ أنه كان يعلم برفض الأمير مقابلة الرجال العسكريين الاسبانيين ، منذ فترة اعتقاله فى مليلة ؛ وكان كذلك قد رفض الاقتراح الاسبانى الذى أشار عليه بارسال مندوب عنه يشارك ، مع الوفد الاسبانى ، فى المفاوضات مع فرنسا . واذا كانت بعض الصحف قد نظرت الى هذه المقابلة على أنها تهدف الحصول على امتيازات لاستغلال بعض المناجم فى اقليم الريف ، فمما لا شك فيه أن هذا السنيور كان مزودا بتعليمات رسمية من الحكومة الاسبانية ، وأنه قد عاد الى مدريد باقتراحات جديدة من الأمير عبد الكريم الخطابى ؛ اذ أن الحكومة الاسبانية قد أعلنت رفضها لهــذه الاقتراحات فى يوم ١٠ يوليو . ونجد من ناحية أخرى أن الحكومة الفرنسية كانت قد سمحت لليون جابر يالى ، المفتش المدنى لمنطقة تاوريرت ، وهى الواقعة على سكة حديد وجدة ــ تازا ، بأن يقبل دعوة الأمـــير عبد الكريم لزيارة أجدير ، عاصمته ، وان كانت قد ذكرت فيما بعد

أنها كانت مجرد عملية مخابرات لمعرفة الأوضاع العامة فى دولة الريف ، وأنها قد أمرت جابر يللى بتحاشى كل ما يشبه محادثات الصلح مع دولة الريف . واذا كان جابر يللى على اتصال دائم فى ذلك الوقت مع ادارة المخابرات العسكرية الفرنسية فى الرباط ، وبالتالى مع المقيم العام الفرنسى ومع حكومة باريس ، فلا شك أن فرنسا كانت تحاول القيام بدراسة لمعرفة امكانيات الوصول الى اتفاق ، بشكل أو بآخر ، مع عبد الكريم الخطابى ، وفى يوم من الأيام ، كما يظهر من مذكرات هذا المندوب التى نشرت فيما بعد .

ولقد أثار الأمير عبد الكريم الخطابى مسألة شروط الصلح مع الاسبانيين ومع الفرنسيين ومع غيرهم من الانجليز ، وفى نفس الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر مدريد . ولقد نشر أحد أصدقائه من الانجليز ، وهو الكابتن كاننج ، فى يوم ٢١ يوليو « الخطوط العامة لشروط الصلح بين فرنسا واسبانيا والريف » . وكانت مطالب رجال الريف واضـــحة ، وتتلخص فى ضرورة الاعتراف بالضفة الشمالية لنهر الورغة على أنها الحد الجنوبى لدولة الريف، والاعتراف بدخول كل منطقة الجبال داخل حدود هذه الدولة . ويمكن لاسبانيا أن تحتفظ بمجرد قواعدها الأصلية فى سبتة ومليلة، علاوة على مناجم الحديد التى تقع على بعد خمسة كيلومترات الى الجنوب من مليلة . وهكذا نرى أن عبد الكريم الخطابى قد تقدم باقتراحات سياسية لها قيمة دبلوماسية ؛ اذ أنه ربط بينها وبين عروض اقتصادية مغرية ، ودون أن يبتعد كثيرا عن الواقع . وكان الأمير عبد الكريم قد أرسل مندوبا عنه الى طنجة فى أوائل شهر يوليو لابلاغ مندوبى حكومتى باريس ومدريد استعداده للمفاوضة من أجل الصلح ؛ ولكن مؤتمر مدريد كان يسير فى أعماله ، وتوصل يوم ١٨ يوليو الى التوقيع على المذكرة السياسية التى أصرت على عدم عقد صلح منفرد مع عبد الكريم .

ولقد اشتملت هذه المذكرة السياسية على شروط تسـمح

للدولتين الأوربيتين بالاستمرار فى العمل ، وحتى النهاية ، فى منطقة الريف . وتعهدت فيها الحكومتان بالعمل معا ، على أن يضمنا لقبائل الريف والجبالا درجة كبيرة من الحكم الذاتى ، ولكن فى حدود وداخل نطاق المعاهدات الدولية التى تتعلق بالامبراطورية الشريفية ، كما أعلنت اتفاق الحكومتين على فتح باب مفاوضات ، ولكنها مشتركة ، لاعادة السلم ولانشاء نظام جديد فى منطقة الريف الثائرة . وأصرت على أن النقط السياسية فى مثل هذه المفاوضات يجب أن تشتمل على ضرورة الافراج عن الأسرى ، واعلان العفو العام عن الأهالى ، ووضع نظـام خاص لحكم ادارى محـلى ، والاعتراف بحرية التجارة فى كل مناطق الريف ، وتطبيق نظم الجمارك وفئات رسومها التى فرضتها المعاهدات عليها ، وكذلك الاستمرار فى حظر ومنع دخول الأسلحة النارية والذخائر اليها ، أو الاتجار فيها فى تلك المنطقة ، علاوة على تحديد إقطاع ساحلى تقوم اسبانيا باحتلاله بعد وقف العمليات الحربية .

واذا كان الفرنسيون والاسبانيون قد احتفظوا بهذه الشروط سرية ، الا أنها كانت تتعارض مع شروط الأمير عبد الكريم الخطابى، وكان معنى وصولهم الى اتفاق فيما بينهم هو أن أساس هـذا الاتفاق يتعارض مع مصلحة الأمير عبد الكريم ، ومصلحة الريف . وظهر أن هاتين الدولتين الاستعماريتين ترغبان فى وضع الأمير أمام الأمر الواقع ، وداخل نطاق الاتفاقيات الدولية ، التى كان قد أعلن الثورة ضدها .

ولقد كلفت الحكومة الفرنسية المسيو جابر يللى فى تاوريرت فى ١٦ يوليو بابلاغ الأمير بأن فى استطاعته ، ان أراد دراسة تلك المذكرة ، أن يحصل على نسخة منها من المندوبين الفرنسيين والاسبانيين فى مليلة ، وأن حكومتهما ستزودهم بنسخ منها فى يوم ٢٠ ، وأن هؤلاء المندوبين سيمكثون هناك من ٢٤ يوليو حتى ١٤ أغسطس . ولكننا نلاحظ أن الأمير عبد الكريم الخطابى لم

يتصل بهؤلاء المندوبين في مليلة ، بل كتب الى مندوبيه هو فى طنجة ، ووجههم الى الاتصال بالسلطات الفرنسية المحلية . ولم يظهر الأمير عبد الكريم رغبة فى معرفة الشروط الفرنسية الاسبانية السابقة ، ولكنه طالب من جديد بضرورة الاعتراف باستقلال الريف ، وبأن تجرى المفاوضات فى طنجة ، وبصفتها منطقة دولية ، كشرط أساسى للوصول الى السلم . ولقد أرسلت هذه الخطابات فى يوم ٢٦ يوليو الى كل من باريس ومدريد ، كما أرسلت محتوياتها برقيا الى الاقامة العامة فى الرباط . ولكن حكومة باريس لم تتقدم بأى رد ، ثم أعلنت الكيه دورسيه أنها لم تستلم أية مذكرات من الأمير عبد الكريم الخطابى ؛ فاتصل مندوبو الأمير بالماركيز دى استيلا من طنجة ، ودعاهم برقيا للحضور وزيارته فى تطوان . ولقد رحب بهم وتحدث معهم وديا ، وعادوا بنتيجة هذه المحادثات الى أجدير . ولا شك أن الماركيز دى استيلا فى تطوان قد أبلغ حكومته أن منـــدوبى الريف قد أصروا على ضرورة الاعتراف باستقلال الريف كشرط أساسى للدخول فى مفاوضات الصلح . فلم يكن من الحكومتين الفرنسية والاسبانية الا أن نشرا نصوص اتفاقياتهما ، وأعلنتا أنه لا يمكن الاعتراف باعطاء الاستقلال للريف ، وأن الحرب ستستمر ، وأن المندوبين – الفرنسى والأسبانى – اللذين وضعا تحت تصرف عبد الكريم فى مليلة سينسحبان ما دام الأمير قد أهمل وجودهما . وكانت فرنسا فى ذلك الوقت أشــد حرصا من اسبانيا على الدخول فى عمليات حربية كبيرة ، وكانت قد استندت فى ذلك الى قوات عسكرية ضخمة جمعتها من كل بلاد المغرب الكبير ، بعد أن نجحت فى ان تنقل مركز عمليات الريف من مدريد الى باريس .

الفصل العاشر

هجـــوم الاســـــتعمار

كانت عودة الماريشال بيتان الى المغرب الأقصى تدل على قرب بداية الهجوم المضاد على زحف رجال الريف صوب الجنوب ، أو بداية الزحف الاستعماري ضد قوى المكافحين الأحـــرار . ووصل الماريشال بيتان الى الدار البيضاء فى يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ ، وبعد أن تباحث مع الماركيز دى استيلا فى فندق الملكة كريستينا فى الجزيرة الخضراء . ومما لا شك فيه أن الماريشال قد وعد الماركيز فى تلك المقابلة بأن تساعد فرنسا اسبانيا الى أكبر درجة ممكنة ضد الأمير عبد الكريم ، وأن ترسل قوات فرنسية لمهاجمته داخل منطقة الحماية الاسبانية نفسها . والواقع أن مثل هذه الوعود كانت تزيد فى جوهرها على نصوص الاتفاقيـــات الفرنسية الاسبانية ؛ ولكن الماريشال لم يقدم هذه الوعود مجانا ، اذ أنه كان محتاجا الى خدمات أخرى تقدمها له اسبانيا الاستعمارية فى قطاعات أخرى : ذلك أنه كان يحتاج الى هجوم الاسبانيين وقيامهم بعملية زحف من القصر الصغير ضد شفشاون ، وكان فى نفس الوقت مستعدا لارسال حملة من وزان صـــوب نفس المدينة . وفى حالة ارسال الاسبانيين بعض فرقهـــم الى خليج الحسيمة ، وزحفهم على أجدير من الجبهة الشرقية بطريق أنوال ، فان الماريشال كان مستعدا للقيام بزحف آخر من الجنوب صوب المنحدرات التى تنزل بعد ذلك متجهة صوب البحر المتوسط .

ولقد أعطى الماريشال هذه الوعود ، وكان مسئولا عن العمليات فى منطقة النفوذ الفرنسى ، فى المغرب الأقصى . ولكن ما أن وصل

الى الرباط ، وقابل انجنرال ناولان ، المسئول الفعلى عن العمليات، حتى وجد أن لهذا الجنرال خطة أخرى ، مفيدة عمليا وأقل طموحا من خطة الماريشال نفسه . وكانت خطة الجنرال ناولان تتلخص فى القيام بعمليات مستقلة عن العمليات الاسبانية ، وتتلخص فى ضرورة تركيز المجهودات الفرنسية من أجل استعادة المواقع التى خسرتها فرنسا فى شمال وادى الورغة . ومما لا شـــك فيه أن الماريشال الفرنسى قد وصل مع الجنرال المنفذ الى حل وسط ، ما دامت خطة الجنرال قد نفذت بالاضافة الى الجزء الشرقى من خطة الماريشال .

ولقد كانت الأحوال الجوية عائقا واضحا للعمليات الحربية فى تلك الفترة من فترات السنة ، اذ أن حرارة الجو كانت شديدة، وكان التهديد بقرب هطول أمطار الخريف يهدد بوقف العمليات الحربية بعد شهر واحد من بدئها .

ولقد استخدم الفرنسيون آخر الفنون الحربية الأوربية فى قطاع عملياتهم فى وادى نهر الورغة ، وكأنهم كانوا يعملون فى خطوط المارن أو على مشارف برلين . لقد بدءوا بضرب القطاع بأكمله بالمدفعية الثقيلة ضربا متصـــلا فى ١٠ سبتمبر ، قبل أن يبدأوا بالهجوم فى اليوم التالى . وأخذت القوات الفرنسية تتقدم بطريقة منتظمة ولمسافات صغيرة ، حتى تتمكن من فصل ومحاصرة وتطهير كل مرتفع ، قبل البدء فى العمل فى المرتفع التالى . ولقد استمرت العمليات فى هذا القطاع حتى يوم ٢٧ أكتوبر ، وأقام الجنود مواقع ثابتة لكى يمضوا فيها فصل الشتاء . والواقع أن الفرنسيين كانوا قد وصلوا فى هذا الوقت ، وفى نقط كثيرة ، الى الخط الأصلى الذى كانوا يعسكرون فيه قبل هجوم مجاهدى الريف فى شهر ابريل ، وفشلوا فى نفس الوقت فى الوصول الى محاصرة بنوورياغل، الجنوبيين ، وفى اجبارهم على طلب الخضوع ، رغم أن الجنرال ناولان كان قد أصر على ذلك ، كنقطة أساسية فى برنامجه .

ولكن الفرنسيين توصلوا فى قطاع تازا الى نجاح أكبر ، خاصة وأنهم قد تمكنوا فى هذا القطاع من تنفيذ خطة الماريشال بيتان التى هدفت اقامة تعاون مع الاسبانيين فى هذه المنطقة . ذلك أن حملة اسبانية كانت قد تمكنت من النزول على الساحل فى نقطة تقع الى الغرب من خليج الحسيمة ، فى الفترة الواقعة بين ١١ ، ١٦ سبتمبر ، وبدأت تتوغل ابتداء من ٢ أكتوبر فى سهل أجدير ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه مجاهدو الريف يهددون تطوان نفسها . وأخذت القوة الفرنسية الزاحفة من تازا فى التسابق مع العوامل الجوية ، وكانت ترغب فى أن تتصل مقدمتها بالاسبانيين الزاحفين من مليلة وأجدير قبل أن تجبر الأحوال الجوية وسقوط الثلج القوات المحاربة على وقف كل عمليات فى تلك المنطقة . ولقد اتصل خيالة الفرنسيين المتقدمين من تازا فى يوم ٦ أكتوبر ، وفى سيدى الحسن ، بخيالة الاسبانيين المتقدمين من قطاع مليلة ؛ وإن كانت قوات الحملة الاسبانية الزاحفة على طريق أجدير قد تأخرت فى زحفها ؛ ثم وصلوا فى يوم ١٠ أكتوبر الى سيدى على بورقبة ، التى تقع على بعد أربعين كيلومترا من أجدير ؛ وبعد أن استخدموا فى ذلك الطريق الحربى الذى كان عبد الكريم قد قام بانشائه فى الجبال . ولكن الاتصال بين القوات الفرنسية الزاحفة شمالا ، والقوات الاسبانية الزاحفة جنوبا لم يتم . ثم زادت الأمطار ، بدرجة منعت العمليات . واضطرت فرنسا الى سحب فرسانها من سيدى على بورقبة الى سوق السبت بعد أسبوع ، ثم أردفت ذلك بسحب مشاتها الى مرتفعات خط تقسيم المياه بين الريف وحوض الملوية .

ولقد اعترف الماريشال بتيان بأن الأحوال الجوية هى التى منعته من اكمال تنفيذ خطته الأصلية ، وأنه يصعب القيام بأية عمليات عسكرية فى ذلك الفصل من فصول السنة . وترأس الماريشال مجلسا عسكريا عاليا فى فاس فى أول نوفمبر ؛ قبل أن يعود الى فرنسا . أما عبد الكريم فانه قد اضطر الى نقل عاصمته

ومقر قيادته الى الداخل ، والى الجنوب الغربى من تارجست .

ويمكننا أن نقول أن كلا من الطرفين قد فشل ، فى هـــذه المرحلة ، فى الوصول الى أهدافه ؛ ذلك أن عبد الكريم كان قد قام بهجوم الربيع ، ونجح فى تحطيم خط الدفاع الفرنسى عند الورغة ، ووصل الى أبواب تازا ، ولكنه فشل فى أن يدخل فاس منتصرا ، حيث كان فى وسعه أن يعلن نفسه سلطانا على المغرب الأقصى ، أو أن يتصل بقبائل الأطلس . ونجد من ناحية أخرى أن الفرنسيين والاسبانيين قد فشلوا ـ رغم قيامهم بالهجوم الاستعمارى المضاد فى الخريف ـ فى القضاء على جيش الأمير عبد الكريم ، وفشلوا فى قطع اقليمه الى قسمين ، باحتلالهم للخط المار من تازا الى اجدير احتلالا مستديما ؛ كما فشلوا فى اغراء القبائل على الخروج عن طاعته . وهكذا لم يؤد الموقف الحربى الى أية نتيجة ايجابية لهذا الجانب أو ذاك . وأثبت الصراع أنه مستمر وطويل وصعب ، وان كانت مظاهره الخارجية قد ظهرت متأثرة بالموقف الاستراتيجى، ونسبة القوى العسكرية والاجهاد الحربى للوطنيين ، ودرجة نفوذ كل من الطرفين على رجال القبائل .

ولقد تمكن مجاهدو الريف فى أثناء هـــذه العمليات من أسر تسعة مواقع فرنسية ، وقاموا بنسف موقعين ، وأجبروا الأعداء على اخلاء ٣٢ موقعا ، وذلك فى أثناء هجومهم فى فصل الربيع . وكان هذا يعنى أن الفرنسيين قد خسروا ٤٣ موقعا من ٦٦ . ولكن الفرنسيين تمكنوا من استعادة ٢١ موقعا وأنشأوا مواقع جديدة ، وخاصة فى قطاع تازا ، حيث تمكنوا من احتلال مرتفعات تقسيم المياه التى تشرف على جنوب أجدير . أما مسألة اجبار الحملة الفرنسية لعبد الكريم على اخلاء عاصمته فقد جاءت أمرا عفوا . كما أن قبائل الانجارا فى المثلث الواقع بين تطوان وسبتة وطنجة كانت مستمرة فى موقفها الثورى التحررى . ونلاحظ من الجانب الآخر ، أى فى الجبهة الفرنسية ، أن قبائل بنو سناسن ، وهى التى تتحكم فى الضفة الجنوبية ، والتى تحتل المرتفعات

الواقعة بين الورغة واللبن ، وتتحكم فى أضعف نقطة فى الخطوط الفرنسية ، قد واصلت حربها الى جانب عبد الكريم ، ومع بقية أبطال الريف . ولذلك فان نهاية العمليات فى هذا الوقت وبهذا الشكل قد تركت كلا من الجانبين تحت رحمة الآخر من الناحية الاستراتيجية ، وأكثر عن ذى قبل .

أما عن نسبة القوات العسكرية والاجهاد الحربى فاننا نلاحظ أن الأمير عبد الكريم كان قد بدأ هجومه بقوة بلغت ٣٥٫٠٠٠ مجاهد، منهم ٢٥٫٠٠٠ من الريف ١٠٫٠٠٠ من الجبالا . ولكن ما أن انضم اليه رجال القبائل فى الأقاليم المحررة من منطقة النفوذ الفرنسى حتى قدر الفرنسيون قواته بمائة ألف مقاتل . ولكنه خسر ما يقرب من عشرين ألف نتيجة لتقهقره فى فصل الخريف أمام تقدم القوات الفرنسية واحتلالها لبعض أراضى هذه القبائل . وعلى أية حال فيمكننا أن نقدر قوات الأمير عبد الكريم فى نهاية هذه العمليات بستين ألف مقاتل ، أى أنها قد زادت بمقدار ٢٥٫٠٠٠ رجل .

أما الفرنسيون فانهم أرسلوا امدادات كبيرة الى المغرب بعد أزمة تازا فى أوائل شهر يوليو . وكانت هذه الامدادات تتكون من ١١ كتيبة أوربية من الفرنسيين وقوة كبيرة من وحدات المدفعية والوحدات المساعدة ، علاوة على قوات المجندين من الجزائريين والتونسيين والمغاربة ، والذين جندتهم فرنسا فى قواتها الاستعمارية . وحينما بدأ الماريشال بيتان والجنرال ناولان هجومهما فى ١٠ سبتمبر كانت هناك سبع فرق كاملة تحت قيادتهما : اثنتان فى كل قطاع على الجبهة ، وواحدة تمثل القوة الاحتياطية فى فاس . ولقد اشتملت هذه الفرق السبع على ١١٤ كتيبة مشاة ، ٢٥ كتيبة فرسان ، ٢٢ سربا من الطائرات تشتمل كل منها على ٦ طائرات . ولقد أعلنت الحكومة الفرنسية أمام لجنة الشئون المالية فى مجلس النواب فى باريس يوم ٢١ أكتوبر أن قواتها فى المغرب الأقصى قد بلغت ١٥٨٫٠٠٠ جندى ، لم يكن

منهم سوى ١٢٫٠٠٠ من الفرنسيين ، ١٢٫٨٠٠ من أجناس أوربية أخرى فى الفرقة الأجنبية ، ١٣٣٫٠٠٠ من أهالى ومجندى المغرب العربى . وكان هذا يعنى أن أبناء المغرب الذين خدموا فى صفوف القوات الفرنسية المحاربة ضد الأمير عبـــد الكريم قد وصلت نسبتهم فى هذه القوات الى ٨٥٪ منها ، وكانوا بذلك أكثر من ضعف قوة الأمير عبد الكريم عند نهاية الحملة . وزادت النسبة تباينا بين القوات الاستعمارية وقوات جمهورية الريف حينما أرسلت فرنسا احدى وعشرين كتيبة جديدة لمحاربة الأمير عبد الكريم ورجـــاله .

ولقد بلغت خسائر الفرنسيين حتى نهاية شهر يوليو ، ١٢٨٥ قتيلا ، ٥٣٠٦ جرحى ، ولكنها زادت فى وقت الهجوم المضاد من أول أغسطس حتى ١٥ أكتوبر بعدد جديد بلغ ٨٩١ قتيـــلا ، ٢٩٩١ جريحا . وكانت نسبة عدد الفرنسيين فى هذه الخسائر الى عدد الوطنيين تدل على أن فرنسا كانت قد تركت العبء الأكبر من هذه العمليات يقع على كاهل المجندين من أبناء المغرب العربى ، وأنها قد أصبحت دولة تعتمد على القوة البشرية الموجودة فى شمال افريقية للمحافظة على تلك المنطقة الخاضـــعة لنفوذها ولحكمها . والواقع أن الرأى العام الفرنسى كان قد أجبر الحكومة على السير على هذه السياسة بعد أن أخذ فى الامتناع عن دفع ضريبة الدم ، نتيجة لانخفاض نسبة المواليد فى فرنسا ، ونتيجة لخسائر هذه الدولة فى الرجال فى الحرب العالمية الأولى . وكان الرأى العام الفرنسى لا يرحب بالخدمة العسكرية فى شمال افريقية فى ذلك الوقت ، حتى أن الحكومة قد اضطرت الى أن ترسم فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ عمل قرعة بين الجنود لاختيار اللازمين للخدمة هناك ، وأعفت من هذه الخدمة المتزوجين واليتامى ومن فقد والده أو أخوين له فى الحرب العالمية الأولى . ولقد كلفت هذه العمليات فرنسا ، حتى ٢١ أكتوبر ، مبلغ ٩٥٠ مليون فرنك

(ذهب) علاوة على ثمن معدات أرسلت من فرنسا ، وبلغت قيمتها أربعمائة مليون فرنك .

أما القوات الاسبانية . الموجودة فى شمال افريقية فان عددها قد بلغ بعد انسحاب سنة ١٩٢٤ : ٦٩ر٢٩٠ اسبانيا ، علاوة على ١٥ر٠٠٠جندى من الوطنيين . ولكن الامدادات التى أرسلت من اجل هجوم الخريف زادت من عدد القوات الاسبانية فى شمال افريقية الى ١١٨ر٠٠٠ جندى . وكان الجيش الاسبانى – على عكس الجيش الفرنسى – يشتمل على عدد بسيط من القوات الوطنية ، وعلى أغلبية ساحقة من الاسبانيين ، وان كانت هذه النسبة غير ذات فاعلية كبيرة ، نتيجة لقلة قيمة الجندى الاسبانى من الناحية العسكرية .

كان معنى ذلك ان ما يقرب من ٢٨٠ر٠٠٠ جندى فرنسى واسبانى قد وقفوا فى مواجهة ٦٠ر٠٠٠ من أحرار الريف المجاهدين فى خطوط القتال فى شمال المغرب فى ذلك الوقت . هذا من الناحية العسكرية .

أما من الناحية السياسية فان الهدف السياسى لذلك الصراع الحربى كان يتلخص قبل كل شىء فى انضمام القبائل للحركة الثورية التحررية ، أو فى بقائها على خضوعها للمحتلين الأجانب ، حسب وجهة نظر هذا الجانب ، أو الجانب الآخر . ولقد اعترف المستعمرون بأنهم لم يتمكنوا من السيطرة الا على نصف القبائل التى كان الأمير قد تمكن من تحريرها فى هجوم الربيع . ولقد كان هذا العامل فى جانب عبد الكريم ، الا أنه قد فشل من ناحية أخرى فى مشروعه الأصلى الكبير ؛ مشروع اشعال الثورة وراء خطوط الفرنسيين ، وفى كل منطقة جبال الأطلس الشماء .

ولقد اختتمت هذه السنة بترك الماريشال ليوتى للمغرب الأقصى ، اذ أنه قد أقلع من الرباط فى يوم ١٠ أكتوبر بعد أن كان قد كتب استقالته من منصب المقيم العام لفرنسا فى يوم ٢٤ سبتمبر

سنة ١٩٢٥ . وترك ليوتى المغرب الأقصى بعد أن وصل اليه بيتان ، وأصبح مكلفا فيه منذ ٢٢ أغسطس بالاشراف على عملية الهجوم المضاد . وكان الماريشال ليوتى يرغب فى التشاور مع حكومة باريس ، ان كانت ترغب فى الاحتفاظ به فى المغرب الأقصى ، اذ ان استقالته كانت مسببة ، بأسباب أكثر من الأسباب الشخصية . وأعلنت حكومة باريس فى ٢ سبتمبر أنه سيعود الى المغرب ، وعاد اليها بالفعل ؛ ثم رجع الى فرنسا فى أكتوبر ، وبعد أن ظل مقيما عاما لفرنسا هناك منذ ٢٨ أبريل سنة ١٩١٢ ، أى أربعة أسابيع بعد التوقيع على معاهدة الحماية على هذا الأقليم .

ولم يتمكن ليوتى من السير على سياسة كسب الرؤساء التقليديين فى المغرب ، وعجز عن الوقوف أمام هجمات الاشتراكيين ، الذين طالبوا بتعيين أحد المدنيين أو الرجال السياسيين فى هذا المنصب الخطير ، والذى يتطلب من السياسة أكثر مما يتطلب من الشدة والبطش . ورغم ابتعاد الماريشال ليوتى عن ميدان العمليات فان السياسة لم يكن لها مجال كبير فى المغرب فى ذلك الوقت ، ما دامت فرنسا قد صممت على الاستمرار فى عملياتها العسكرية ، وما دام الماريشال بيتان يشرف عليها فى المغرب .

الفصل الحادى عشر

زيادة الضغط الاقتصادى

لقد تأثر كل من الجانبين ، الجانب الوطنى بقيـــادة الأمير عبد الكريم الخطابى ، والجانب الاستعمارى والذى يتمثـــل فى تجمعات القـــوات الفرنســـية والاسبانية ، بفشـــل عمليات سنة ١٩٢٥ . حقيقة أن هذه العمليات لم ترجح أيا من الكفتين على الكفة الأخرى ، ولكن تأثير الفشل لم يكن واحدا على كل من الطرفين .

ونجد من ناحية أن الانهاك قد بدأ يؤثر فى الناحية المعنوية لقوات ورجال الأمير عبد الكريم الخطابى . وكان هؤلاء الرجال الثوار قد اســـتمروا فى عمليات مضنية أمام قوات الدولتين الكبيرتين . ولا بد من أن نذكر الفارق الكبير بين معدات وأسلحة كل من الطرفين ، وتأثير ذلك على الروح المعنوية عند أبطال الريف ، وخاصة مع مرور الزمن . كما أن وسائل الامداد والتموين ، ونظام الحملة الحديث ، كان يساعد على تزويد الجنود الاستعماريين بسرعة ، بكل ما يلزمهم فى أثناء العمليات . وكانت ضخامة امكانيات القوى الاستعمارية تؤثر بلا شك فى الروح المعنوية لرجال عبد الكريم الخطابى ، وخاصة فى الوقت الذى اجتاحت فيه أجسادهم الى بعض الراحة ، وبدأوا فى الشعور بنقص مواد التموين .

الا أن فشل القوات الاستعمارية الفرنسية والاســـبانية فى الوصول الى انتصـــار ، أو حتى الى احتلال اســـتراتيجى فى صالحهم ، كان يشعر الجانب الاستعمارى من الناحية الأخرى

بخطورة العدو الذى يحاربونه . ورغم تفوق القوات الفرنسية والاسبانية من الناحية العددية فانها قد شعرت بنزالها لخصم عنيد ، صلب العود ، مصمم كل التصميم على هزيمتها ، وفى الأرض التى يعرفها جيدا . ولذلك فان هذه القوات الاستعمارية قد عملت على زيادة التعاون فيما بينها ، وبشكل لم يتوقعه كثير من المراقبين السياسيين والعسكريين ، وذلك لتعويض هذا التنافس السياسى الموجود بين هاتين الدولتين فى هذه المنطقة . وهكذا أدت عمليات هجوم الريف على الجنوب الى زيادة تكتل القوى الاستعمارية الفرنسية والاسبانية ضد أبطال الريف الأحرار .

واتخذ الموقف العام حول الريف فى ذلك الوقت شكل عناد ، ومن الجانبين ، سيؤدى ذلك الى عمل الفرنسيين والاسبانيين على اعداد حملة جديدة ، تتمكن من احراز النصر ، وفرض كلمتها بالقوة على الثورة الوطنية هناك .

وجاء الشتاء بعد ذلك ، بما يعنيه هذا الفصل فى الجبال من سقوط الأمطار ، وتغطية القمم والمواقع بالثلوج ، وانهيارات فى بعض جوانب الطرق . كما أن هذا الفصل من فصول السنة كان يعنى صعوبة المواصلات ، ونقص التموين ، وخاصة على تلك الأجساد التى أرهقت فى عمليات كبيرة وطويلة ، دون أن تتزود بكثير من المأكل ، أو تستعد لمواجهة هذا البرد القارس منذ سنوات . وبدأ الانهاك على رجال الريف ، خاصة وأن اقليمهم كان قد أخذ يقاسى من تطويق القوات الاستعمارية البرية له من الجنوب ، ومن تطويق سفن الأساطيل الفرنسية والاسبانية لسواحلهم الشمالية . ورغم ذلك فان هؤلاء الرجال كانوا لا يزالون مصممين على الاستمرار فى الكفاح ، ومواصلة الجهاد ، الى أن يقضى الله أمرا كان مكتوبا ؛ فاما النصر والتحرير ، وما الاستشهاد فى سبيل الحرية والاسلام .

وكانت الحكومة الفرنسية على علم بالأحوال السائدة فى ذلك

الوقت فى اقليم الريف ، وذلك عن طريق الشرق والجزائر ، وعن طريق تاوريرت . ولذلك فان فرنسا قد أظهرت تصميما واضحا على الاستمرار فى العمليات الحربية ، وبدون توقف ، وفى تعاون تام مع حكومة مدريد .

وفى نفس الوقت نلاحظ أن الأمير عبد الكريم كان يأمل فى أن تعـود حكومات باريس ومدريد الى صـوابها وتعترف بالحق لأصحابه . وكان يأمل ، وحتى اللحظة الأخيرة ، فى أن ينجح الحزب الشيوعى الفرنسى ، والحزب الاشتراكى ، فى اجبار حكومة باريس على انهاء هذه الحرب ، خاصة وأنها كانت تتعارض مع الشعارات الاشتراكية ، ولا تمثل مصلحة الا لذلك القطاع المستغل المتحكم فى فرنسا ؛ وتجبر الفرنسيين على دفع ضريبة غالية من أبنائها وأموالها فى حرب استعمارية ، وضد رجال لا يطالبون الا بالحرية . وكان الأمير عبد الكريم يأمل كذلك فى أن يتحرك الضمير العالمى أو بعض أو حتى احدى الدول الأوربية ، للتدخل فى هذه الحرب ، ولعرض الوساطة لدى حكومتى باريس ومدريد ، وبينهما رجال الريف . ولكن ذلك التضامن بين الدول الأوربية ، واختلاف نظرتها الى الشعوب فيما وراء البحار ، خيب من آمال الأمير . والواقع أن ترابط المصالح الاقتصادية بين الدول الأوربية ، وقيام ازدهار الاقتصاد الأوربى نفسه على أساس التسلط على بقية العـالم واستغلال مناطقه ورجاله ، وكان عاملا يحرم رجال الريف من الحصول على تأييد أو حتى وساطة الدول الأوربية . ولم تكن الأحزاب اليسارية فى فرنسا قد وصـلت ، من حيث التنظيم ، وتطبيق الشعارات ، وحتى من حيث التكتيك الحزبى ، الى مرحلة تسمح لها بمواجهة الموقف بصراحة وبقوة كافية . وأدى كل ذلك الى استمرار الموقف كما هو ، والى زيادة انهاك القوى الوطنية ، وزيادة تصميم الحكومات الاستعمارية على فرض نفسها بالقوة على الموقف .

ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابى كان فى وسعه أن يحصل على شروط للصلح فى فصل الشتاء أفضل من تلك التى سيحصل عليها فيما بعد ، وبعد دخوله فى معارك جديدة ، تزيد من انهاك قواه ، وتدفع الدول الاستعمارية الى زيادة عدد جنودها فى شمال افريقية . ولكن الفرصة أفلتت من أيدى الوطنيين ، خاصة وأن الحكومات الاستعمارية كانت قد صممت على السيطرة على الموقف فى الريف، وبشكل يمنع قيام مشكلات جديدة فى بقية المستعمرات .

ولقد ظهر هذا التصميم على مواصلة الحرب حتى النهـــاية على الحكومة الاسبانية ، كما ظهـــر على حكومة باريس . وكان السنيور كامبو ، زعيم الحزب الكتلانى الاقليمى ، قد كتب خطابا مفتوحا الى الماركيز دى استيلا فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥ ، ونادى فيه بانتهاز فرصة أحد الانتصارات لكى تنسحب اســـبانيا من العمليات فى المغرب الأقصى . ولكن الماركيز أجاب عليه بعد خمسة أيام بأنه مصمم على مواصلة التعاون والعمل المشترك مع فرنسا ، وعلى طول الخط ، ولكن بحكمة ، ورغم أن « المسألة المغربيـــة » كانت مسألة سيئة بالنسبة لاسبانيا . ثم زاد موقف الماركيز تصلبا فى شهر نوفمبر ، وأخذ يدلى بالتصريحات عن ضرورة القضاء على الثورة فى المنطقة الاسبانية ، وضرورة المحافظة على النظام بكل طريقة ممكنة ، وان كان ذلك سيحدث بطبيعة الحال باسم السلطان، وبمساعدة بعض شيوخ القبائل الموالين لهذه السياسة .

وحينما استقال الماركيز دى استيلا من منصب المنـــدوب السامى والقائد العام للقوات الاسبانية فى المغرب بعد ذلك ، تسلم الجنرال سان خورخو منصب الماركيز دى استيلا ، وأصبح الجنرال خوردانا مديرا عاما للشئون المغربية والمستعمرات فى رئاسة مجلس الوزراء فى مدريد . ولذلك فان هذا التغيير لم يكن يعنى الكثير ، بل كان يدل على استمرار الحكومة الاسبانية على الســـير على سياستها فى المغرب الأقصى ، رغم تغيير القواد ، اذ أنهم كانوا جميعا

من مدرسة واحدة ، هى المدرسة الاستعمارية ، ولهم اتجاهات متقاربة فى ضرورة استخدام الشدة مع الوطنيين ، وفى اعتزازهم بنعرتهم القومية الجوفاء .

وكان الجنرال بواشو قد تسلم القيادة العليا من الجنرال ناولان فى المغرب فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٥ . وكانت السلطات الفرنسية فى كل من المغرب وفرنسا فى ذلك الوقت فى موقف يضطرها الى زيادة الرغبة فى الوصول الى نتيجة حاسمة فى حرب الريف ؛ حقيقة أن دوافع الفرنسيين كانت أقل من دوافع الاسبانيين ، خاصة وأن الثورة لم تكن قد أعلنت فى منطقة النفوذ الفرنسى ، بل فى منطقة النفوذ الاسبانى ؛ كما أن القبائل التى انضمت الى الثورة كانت فى غالبيتها من قبائل الريف ، ولكن فرنسا كانت لا تزال تخشى من ازدياد نفوذ هذه الثورة واتساع رقعتها من جديد ، وكذلك من نشوب ثورات أخرى موازية لها ، ان لم تكن متعاونة معها ، فى مناطق الأطلس المتوسط ، والأطلس الأعلى . وكانت الناحية الاستراتيجية تدفع فرنسا الى ضرورة الوصول الى حل حاسم فى حرب الريف أكثر من الدوافع السياسية أو المعنوية . وكانت العمليات الحربية قد مدت خط الحدود الفرنسية بطريق واضح نحو الشمال ، وأصبح على القوات الفرنسية وقوات المستعمرات الفرنسية أن تقوم بعمليات فى مناطق جبلية ، ووسط أهالى معادين ، وفى ثورة معلنة ، وبعيدا عن قواعدها فى فاس . وكانت خطوط الجبهة الفرنسية قد أصبحت أطول بكثير من خطوط الجبهة الاسبانية ، وأصبح على القوات الفرنسية أن تعانى شتاء قاسيا قارسا على تلك الجبهة ؛ وأصبحت « سلامة » القوات الفرنسية تتطلب ضرورة الوصول الى حل حاسم فى ميدان العمليات . ولكن الموقف السياسى فى فرنسا نفسها كان عاملا من عوامل الضغط على الحكومة الفرنسية . واتخذت أحزاب اليسار، وبخاصة الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى ، من المسألة المغربية مادة خصبة لفضح حكومة فرنسا وباريس أمام الرأى العام

الفرنسى . وكان هذا الضغط من جانب اليساريين يدفع الحكومة وعناصر اليمين وحتى الوسط الى ضرورة تكتيل قواهم فى تلك المعركة التى كانت تمثل صراعا سياسيا يستند الى أسس اقتصادية واضحة . ولقد حاول النواب الشيوعيون فى الجلسة الخاصة بميزانيات المغرب فى مجلس الأمة الفرنسى أن يشنوا هجوما عنيفا على سياسة حكومة باريس فيما وراء البحار . ولا شك أن هذه الهجمات كانت قوية ، ولكن خوف عناصر اليمين وعناصر الوسط من انتصار اليساريين جعلهم يزيدون من تصميمهم على السير على سياسة القوة حتى النهاية . ولم تعد المسألة هى مجرد استقلال اقليم الريف ، أو الاعتراف بحكم محلى ، أو استغلال داخلى فيه ، بل أصبحت صراعا على القوة والسلطة فى الامبراطورية الفرنسية ، مركزة فى مجلس الأمة فى باريس . وهكذا خدمت هجمات العناصر اليسارية الفرنسية قضية استقلال وحرية الريف من ناحية المبدأ ، وان كانت قد أدت من الناحية الفعلية الى ازدياد تصميم العناصر الاستعمارية على استخدام الشدة والقوة مع أبطال الريف الأحرار .

وهكذا ازداد الضغط الاستعمارى على جمهورية الريف ، وعلى رجال وقوات الأمير عبد الكريم الخطابى . وتعاون فى الوصول الى هذه النتيجة طول مدة الحرب ، مع النعرة الاستعمارية ، وعلى أساس مصالح القوى المستعمرة المستغلة . وحتى تكتيك العناصر المتحررة قد أدى عمليا الى زيادة الضغط الاستعمارى هناك . وكان انهاك قوى المجاهدين ، وزيادة الامكانيات التى نزلت أمامهم الى الميدان ، عوامل تصعب على أبطال الريف الوصول الى النتائج التى كانوا يأملون فيها ، أو حتى الاحتفاظ بتلك المحققات التى كانوا قد حصلوا عليها منذ اعلان ثورتهم ، وتأسيس جمهوريتهم ، بعد موقعة أنوال سنة ١٩٢١ .

الفصل الثانى عشر

انهاك قوى المجـــاهدين

بدأت مواد التموين فى النقص لدى أبنـــاء الريف ، وكانت العمليات الحربية قد أجبرت عددا كبيرا من الرجال على البقاء فى مواقعهم ، فى الفترة التى سقطت فيها الأمطار ، بدلا من العمل فى أراضيهم لانتاج الحبوب . كما أن طول فترة حمل السلاح حرم اقليم الريف من جزء هام من الانتاج . وكان شعور الرجال بنقص مواد التموين أثناء استمرارهم فى العمل فى الميدان الحربى يؤثر فى روحهم المعنوية ، ومع ازدياد عدد قوات الدول الاستعمارية فى الميدان ، ونزولها بأسلحة جديدة ، وخاصة المدرعات ، ومدافع الجبال والميدان ، واستخدامها للطائرات فى عمليات الاستكشاف ، وفى توجيه ضرب المدفعية .. أصبح للقوات الاستعمارية فاعلية أكبر . كما أن توغل القوات الفرنسية شمالا داخل منطقة الريف هدد بقسم أراضى هذه الجمهورية الثورية الى قسمين ، بل هدد بالسيطرة على عاصمتها ، وصعب الاتصـــال بين كثير من مواقع مجاهدى الريف . وبعد أن كان الثوار قد وصلوا الى مشارف فاس ، وأخذوا يمنون أنفسهم بتحرير عاصمة مولاى ادريس ، أصبح عليهم أن يواجهوا مصفحات الفرنسيين ، ويقوموا بعملياتهم تحت الطائرات الفرنسية المغيرة فى أراضيهم وفوق رؤوسهم . وكان هذا التقهقر فى حد ذاته عاملا يخفض من الروح المعنوية لدى الثوار ، ويساعد على اظهار بقية المصاعب الخاصة بالتموين ، ويقلل من انتصارات ثورتهم . وكان أبناء الريف قد توصلوا مع زحفهم صوب الجنوب الى الدخول فى محادثات مع أبناء أعمامهم فى اقليم

الأطلس المتوسط ؛ وبعد فترة العمليات فى خريف سنة ١٩٢٥ وجدوا أنفسهم وقد ابتعدوا كثيرا عن هذا الميدان ، وشعروا باقتراب العدو منهم من الجنوب ، واقتراب العدو من سواحلهم الشمالية . وبعد أن كان ثوار الريف ينشرون مبادىء الثورة بين رجال القبائل فى الجنوب ، وجدوا أن العـــدو يتمكن بأمواله وبامكانياته من شراء بعض المشايخ المحليين ، أو ابعادهم عن الثورة، أو يتمكن من فرض نفسه عليهم بقوة السلاح . وكانت كل هذه العوامل ، وكثير غيرها ، تساعد مع ازدياد حدة البرد وقلة التموين، على ظهور الانهاك على هؤلاء الرجال المجاهدين . ولا شـــك أنهم كرجال ثورة كانوا يأملون فى توسيع نطاق ثورتهم ، وفى انضمام الآخرين اليها ، وكان آخر ما يفكرون فيه هو انضمام بعض الرؤساء والمشايخ للقوات الاستعمارية ، أو موافقتهم على الخضوع لرجال الاستعمار .

واستخدم الجنرال بواشو نفس التكتيك الذى كان رجـال ثورة الريف قد استخدموه ضده ، واعتمد فى ذلك على سوء الأحوال العامة عند الأهالى ، وعلى تفوق امكانياته المادية . وبعد أن كان الأمير عبد الكريم قد عمل على استدراج رجال القبائل الواقعين وراء خطوط الفرنسيين اليه ، استخدمت القيادة الفرنسية فى المغرب نفس هذا التكتيك ضده منذ أوائل سنة ١٩٢٦ . وجهزت القيادة الفرنسية عددا من القوات غير النظامية ، جنـــدتها من المغرب نفسه ، وان كانت قد وضعتها تحت قيادة ضباط فرنسيين. وفى الوقت الذى كانت فيه القوات الفرنسية النظامية ترابط على خطوطها ، قامت هذه القوات غير النظامية بالدخـول فى أراضى القبائل المجاورة للحـــدود ، وأجبرتها ــ بمساعدة الطـــائرات الفرنسية ــ على الدخول تحت طـاعة الفرنسيين . وكان أكبر نجاح لفرنسا فى هذا الميدان هو استسلام أبناء مصباح من قبائل صنهاجة ، والتى كانت أراضيها تعتبر مفتوحة فى الجبهة الفرنسية. ومع تدهور الأحوال عند الوطنيين اضطروا الى تقديم تضحيات،

ووافقوا على شروط كانت قاسية عليهم . فلقد وافقوا على تضحية ثور عن كل عشر أسر ، والتعهد بالخدمة حسب طلب الفرنسيين لاصلاح الطرق وتعبيدها ، ووافقوا على اعادة انشاء جميع الطرق التى نسفها الثوار ، واضطروا الى اعطاء بعض الأسرى كضمان لسلامة القوات الفرنسية الموجودة فى أراضى القبيلة ، واضطروا الى تسليم بندقية و ٣٠٠ فرنك عن كل أسرة فى خلال أسبوع ، بعد أن كانت كل أسرة قد دفعت ١٢,٠٠٠ فرنك مع التسليم للفرنسيين . وأخيرا فانهم قد اضطروا الى التعهد بتسليم رجال للعمل فى القوات الفرنسية النظامية ، وللمساعدة على دخول القبائل الأخرى فى طاعة الفرنسيين (١) .

وكذلك سلمت قبائل الجبالا والقسم الجنوبى من بنو ورياغل ، وكانت أراضيهم تقع فى وسط الورغة ، وتهدد فاس تهديدا مباشرا.

وشعر عبد الكريم بخطورة استسلام هذه القبائل ، وحاول أن يعيدها الى حظيرة جمهورية الريف ، وشن هجوما مضادا على تلك المنطقة الواقعة على الحدود ، وأجبر القوات الفرنسية على اخلاء بعض المواقع فى خلال شهر فبراير ، مثل موقع البيبان ، وقام بهجوم آخر منظم على أراضى قبيلة مطيوة ، الواقعة الى الشمال الغربى من مصباح صنهاجة . ولكن الفرنسيين عادوا بهجوم مضاد، وتقدموا الى ما بعد مواقعهم الأولى ، رغم استماتة مجاهدى الريف فى القتال ، كما هى عادتهم .

وجاءت الأنباء فى نفس الوقت بأن قبيلة الانجارا ، الساكنة فى الجزء الشمالى الغربى من المنطقة الاسبانية ، وفى المثلث الواقع بين سبتة وتطوان وطنجة ، قد تفاهمت على شروط الصلح مع الاسبانيين ، وتمكن الاسبانيون فى ٧ مارس من

---

(١) نشرت هذه الشروط فى جريدة « الطان » فى ٥ يناير سنة ١٩٢٦ ، وذكرت الجريدة أن هذه القبيلة قد وافقت عليها .

الاســـتيلاء على مواقع المدفعيــــة المنصــــوبة على المرتفعات الجنوبية المطلة على تطوان ، والتى كانت مدافعها المأسورة منهم تصلى تلك المدينة بنيرانها منذ أكثر من عام . واستولوا عليها ، وان كانوا قد دفعوا فى سبيل ذلك خسائر فادحة . وهكذا تهيأ الجو ، بل حتمت الظروف ضرورة التفاهم بين الطرفين ، وللوصول الى حل معقول ، بعد أن تغير الموقف العسكرى ، وبهذا الشكل الواضح .

وبدأت مشروعات المباحثات بين رجـــال الريف وكل من الفرنسيين والاسبانيين بتلك المحـــاولات التى قام بهـــا الكابتن غوردون كاننج ، الذى كان يعطف على كفاح أبناء الريف من أجل استقلالهم ، والذى كان قد أعلن للغرب الشروط التى وضـــعها الأمير عبد الكريم لقبول الصلح . ويصر الكابتن كاننج على أنه قد قام بمهمة الوساطة بصفته الشخصــــية ، ودون أى تكليف من الحكومة البريطانية ، رغم أن الصحافة الفرنسية قد اتهمته بأنه كان يبحث عن الامتيازات الخاصة باســـتغلال المعادن والثروة المعدنية فى تلك المنطقة . وكان كاننج قد قابل بانليفى — رئيس الوزراء الفرنسى — فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٢٥ ، أى بعد نهاية فصل العمليات ، وحصل منه على تصريح بالذهاب الى الريف ، وعن طريق الرباط ، ولكى ينصح عبد الكريم بأن يطلب رسميا شروط الصلح الفرنسية الاســـبانية التى قررها الطـــرفان فى ١٨ يوليو . وفى هذه المرة اضطر الأمير عبد الكريم الى أن يقبل الفرصــــة التى أفلتت منــــه فى أثناء الصـــيف . وعاد كاننج فى ٢٣ ديسمبر الى باريس ، وعن طريق الرباط ومرسيليا ، وبصفته ممثلا رسميا لعبد الكريم فى طلب شروط الصلح المذكورة . وطلب كاننج — بمجرد وصوله الى مرسيليا — مقابلة أرستيد بريان رئيس وزراء فرنسا الجديد ، ولكنه رفض مقابلته . وحين أثار النواب الشيوعيون هذه المشكلة فى مجلس النواب ، وطلب كاشان تفسيرات عنها ، أصر بريان على موقفه ، وموقف حكومته ، وضرورة المحافظة على الامبراطورية ، واحترام التعهدات الدولية ؛ وذهب الى أكثر

من ذلك ، وادعى أن سلطة عبد الكريم على رجال القبائل تقوم على التهديد والارهاب ، وأن الأمير يستخدم بعض الجماعات من قبيلته لاجبار رجال الريف على البقاء تحت سلطته ، وأن بعض هـــذه القبائل قد أخذت فى التخلص من هذه السلطة . ولا شك أن بريان كان يغالط نفسه حين قرب بين تنظيم أبطال الريف ، والاتجاهات الفاشستية التى كانت قد بدأت فى الظهور بوضوح فى أوربا فى ذلك الوقت ؛ ولكنه حاول بذلك أن يبعد بين اليساريين الفرنسيين وبين العطف على قضية أحرار المغرب . وشرح بريان بعد ذلك أن فرنسا لا تخسر رجالا فى هذه الحرب ، اذ أن مجندى المغرب الأقصى وشمال افريقية الفرنســـية هم الذين كانوا يقـــومون بالعمليات ، وبحراسة الحدود ، واستطرد شارحا أن خســائر الفرنسيين قد انخفضت انخفاضا ملموسا فى الشهرين الأخيرين ، وأن التحسن قد ظهر فى جانب الفرنسيين . واذا كان بريان قد رفض التفاهم مع الأمير عبد الكريم الخطابى ، فان ذلك لم يمنعه من التصريح بأن الاتصالات والمفاوضات كانت مستمرة مع رجال كل قبيلة ، وعلى انفراد . وذكر أن حكومته غير ملزمة باعتبـــار عبد الكريم الشخص الوحيد الذى يجب عليها أن تتفاوض معه ، بل أن التفاوض مع عبد الكريم سيسهل عليه أمر اعادة سيطرته على القبائل التى قدمت طاعتها للفرنسيين ، وعلى أساس أنه هو الممثل للاقليم . ولقد أصر على أن الحكومة لا تستطيع ترك تلك القبائل التى طلبت حمايتها تقع ثانية تحت رحمة عبد الكريم . وشرح أن مقابلته للكابتن كانتج تعنى فقد ولائه لاتفاقيـــاته مع اسبانيا ، ومن الضرورى أن تشترك اسبانيا فى مفاوضات الصلح مع فرنسا . وكان بريان قد غير سياسة الحكومة الفرنسية قبل أن يصل الكابتن كانتج الى مرسيليا . ورغم فشل كانتج فى هذه المهمة فانه قد عاد الى طنجة . الا أن القنصل البريطانى هناك طلب منه ترك الأراضى المغربية نهائيا ، ودون أن يعود لمقابلة الأمـــير عبد الكريم .

وبعد فشل هذه المحاولة استعد كل من الطرفين لمواصلة العمليات الحربية من جديد فى فصل الربيع ، وقام الماريشال بيتان والماركيز دى استيلا بدراسة خطة العمليات الجديدة فى مدريد . وفى نفس الوقت قام مجاهدو الريف على الجبهة بانشاء التحصينات والاستحكامات المعززة بالدشم ، وخاصة فى بعض القطاعات المواجهة للفرنسيين . ولقد وصل عدد المواقع المتتالية فى بعض هذه الاستحكامات الى نفس عدد وشكل الخطوط الفرنسية الألمانية فى الحرب العالمية الأولى . ولكن الأمير عبد الكريم كان قد شعر بضرورة الوصول الى تسوية ؛ حتى وان كانت محاولة الكابتن كانتج قد فشلت ؛ وكانت القوات تستعد للحرب ، من الجانبين .

وأرسل الأمير عبد الكريم بخطاب الى جريدة التايمز ، عن طريق مراسلها فى طنجة ، وأعلن فيه استعداده للصلح (١) . كما أنه واصل مكاتباته مع ليون جابريللى ، المفتش الفرنسى فى تاورت ، وعرض عليه السماح للأسرى الاسبانيين والفرنسيين بالاتصال أصدقائهم ، وبارسال الملابس والأدوية والأطعمة اليهم . وأدت هذه المحاولة الأخيرة الى قيام بعثة طبية فى شهر أبريل من تاورت الى تارجست ، وبقيادة جابريللى نفسه . وصحبت هذه المعاملة اقتراحات جديدة للمفاوضات . ولكن الحكومتين الفرنسية والاسبانية كانتا غير راغبتين فى ترك الفرصة تفلت منهما من جديد . وستقوم فرنسا باستغلال امكانياتها المادية والعسكرية لفرض الشروط التى ترغب فيها ، وبالقوة ، على رجال الريف .

(١) نشر هذا الخطاب فى عدد ١٧ مارس سنة ١٩٢٦ .

الفصل الثالث عشر

المفاوضـــات والتســـليم

كانت المفاوضات التى وقعت بين الفرنسيين والاسبانيين من جانب ، ورجال الريف وعبد الكريم الخطابى من الجانب الآخر ، غير متكافئة . وتدل الطريقة التى سارت بها هذه المفاوضات على أنها كانت عملية سياسية لتغطية انسحاب الثورة الوطنية ، التى أنهكتها الحرب من الميدان ، خاصة وأن الاستمرار فى العمليات الحربية بعد ذلك كان يعتبر عملية انتحارية بالنسبة للأمـــير عبد الكريم الخطابى ورجاله .

وبدأت هذه العملية السياسية بمؤتمر عقدته الحكومة الفرنسية فى باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٦ برئاسة أرستيد بريان ، رئيس الوزراء ، وبانليفى وزير الحربية ، وبانسو وكيل الشئون الافريقية بوزارة الخارجية ، وستيج المقيم العـــام الفرنسى فى الرباط ، والماريشال بيتان ، ماريشال فرنسا . وأعلنت الحكومة يوم ٥ أبريل أن هناك أملا كبيرا فى البدء فى المفاوضات ، ثم تباحث رئيس الوزراء الفرنسى مع سفير اسبانيا فى باريس ، وأعقب ذلك انعقاد مجلس الوزراء فى مدريد ، وأعلن الماركيز دى استيلا أن فرنسا واسبانيا متفقتان كل الاتفاق على سياستهما المغربية . وبعد انعقاد جديد لمجلس الوزراء الفـــرنسى أعلنت حكومة باريس فى ٩ أبريل أن الحكومتين الفرنسية والاسبانية قد قبلتا اقتراح عبـــد الكريم للدخول فى مفاوضات ، وأنهما قد عينتا مندوبين عنهما للدخول فى تلك المفاوضات فى وجدة مع ممثلى قبائل الريف الثـــائرة . أما مندوبو الريف فكانوا هم سى محمـــد أزر قان صهر الأمير

عبد الكريم ووزير خارجيته كممثل فى بنووورياغل ، وسى محمد الحطنى وسى أحمد جدى عن القبائل الأخرى . ثم أعلن فى باريس بعد ثلاثة أيام أخرى أن الشروط التى سيتقدم بها الفرنسيون والاسبانيون فى وجدة تتلخص وتنص على اعتراف القبائل بسيادة السلطان ، ونزع سلاحهم وانسحاب عبد الكريم من الاقليم ؛ وستحصل القبائل بعد ذلك على نوع من الاستقلال الذاتى ، داخل نطاق المعاهدات القائمة ، وعلى ألا يدخلوا فى أية علاقات مباشرة مع أية حكومة أجنبية ، خلاف اسبانيا وفرنسا فى منطقتيهما . وستحصل القبائل على هدنة نظير ضمانات عسكرية ، ثم تبدأ عملية لتبادل الأسرى بين الطرفين . ولكن فرنسا واسبانيا ستستمران فى استعداداتهما الحربية لحملة الربيع ، والى أن يتم عقد صلح نهائى .

لقد كانت هذه الشروط أصعب كثيرا من شروط شهر يوليو . ولا شك أن الرأى العام الأوربى شعر بذلك ، وشعر بخطورة فرضها ، وخشى من امكانية رفضها . واضطر وزير الحربية الفرنسى الى أن يعلن فى اليوم التالى أنها ليست الشروط الأساسية للصلح ، بل يمكن اتخاذها كأساس للمفاوضات ، وأن ذلك يمكن اعتباره كتنازل وتساهل من جانب دولتى الحماية . وكان الفرنسيون والاسبانيون يلوحون بشرط هام وخطير ، كان بريان قد أشار اليه فى ٣٠ ديسمبر ، وهو أنهم سيقومون بعقد اتفاقيات منفصلة مع رجال كل قبيلة على حدة ، ودون أن يتفقوا مع الأمير عبد الكريم . وكان هذا يستتبع من الأمير أن يوافق على الدخول فى المفاوضات ، حتى لا تفلت هذه الفرصة من يديه ، خاصة وأن رجاله الثوار هم الذين سيقومون بعملية المفاوضات .

والظاهر أن الشروط التى أعلنت فى باريس يوم ١٢ أبريل كانت قد أبلغت الى سى محمد آزرقان فى اليوم السابق لاعلانها ، وأن عبد الكريم قد قبلها فى نفس اليوم . واجتمع المندوبون

الفرنسيون والاسبانيون بمندوبى الريف يوم ١٨ أبريل فى معسكر برنو ، الواقع على الطريق المؤدى من تاورت الى تارجست . وأخذ القائد حدو مكانه بين مندوبى الريف بدلا من سى الحطنى . وأعلن الجنرال سيمون ، رئيس الوفد الفرنسى ، والمتحدث الرسمى باسم كل من فرنسا واسبانيا معا ، أن المفاوضات فى الشروط الأساسية لا يمكن البدء فيها الا بعد استيفاء شروط حربية معينة ، والاتفاق عليها ، وهى الشروط الخاصة بتبادل الأسرى ، والاتفاق على خط الحدود الفرنسى الاسبانى بشكل نهائى . وكانت تمثيلية ، اذ أنها كانت تهدف حرمان رجال الريف من بطاقة يمكنهم استخدامها فى الضغط على الأعداء ، وكانت ستؤدى الى تسوية الخطوط ومواقع القوات الفرنسية والاسبانية قبل الاتفاق على الشروط السياسية . وظهر أن السلطات العسكرية الفرنسية والاسبانية كانت ترغب فى التقدم حتى خط نهر الفرط بجوار سيدى على بورقبة ، وذلك بعد فشلهما فى اقامة الاتصال بين قواتهما مع عمليات شهر أكتوبر . وكان هذا العامل يهدد مواقع مجاهدى الريف ، فأعلن مندوبو الريف أنهم لم يكونوا يعلمون بأن مسألة الحدود سوف تثار فى هذا الاجتماع ، واعترضوا على الشروط الحربية التى فوجئوا بها ، ورفضوها ؛ وعاد القائد حدو بالطائرة لعرض الأمر على عبد الكريم الخطابى .

ووصلت تعليمات الأمير عبد الكريم للقائد حدو يوم ٢٠ أبريل ، وأعلن مندوبو الريف أنهم سيقبلون الشروط السياسية التى تقدم بها الفرنسيون والاسبانيون ، بعد ادخال التعديلات عليها : فبدلا من النص الخاص « بقبول الحالة الناتجة عن الخضوع للسلطان » كما جاء فى النص الفرنسى الاسبانى ، اقترحوا « الاعتراف بسلطة السلطان الدينية والزمنية » . وأما فيما يتعلق بطلب انسحاب الأمير عبد الكريم فانهم قد شرحوا أن مثل هذا الانسحاب المفاجىء سيتسبب فى نشر الفوضى فى جميع أنحاء الريف ، وهو أمر يتعارض مع مصلحة الجميع . ولذلك فانهم قد اقترحوا أن يستقيل الأمير

من نفسه ، وبعد فترة معينة ، وعلى أساس أن يسمح له بالذهاب الى بلد اسلامى آخر . وأما فيما يتعلق بنزع السلاح فقد كان من الصعب حدوثه قبل انشاء قوات عسكرية محلية ، تجمع من بين رجال القبائل أنفسهم . وأخيرا فان تبادل الأسرى لا يمكن أن يقع قبل عقد الصلح ، بل من المنطق أن يقع بعد التوقيع على الصلح .

ولكن هذه الصراحة لم تكن لتعجب المندوبين الأوربيين ، فاحتج عليها الجنرال سيمون ، واضطر المندوبون الى الرجوع لاستشارة حكوماتهم فى باريس ومدريد . والظاهر أن هاتين الحكومتين قد اقتنعتا بالطريقة التى يجب أن تسير عليها المفاوضات ، اذ أنهما أعلنتا فى ٢٦ أبريل سحب الاشتراط الخاص باستيفاء النقط العسكرية قبل التحدث فى الشروط السياسية . وسافر مندوبو الريف من العيون الى وجدة ، وبدأ مؤتمر الصلح أعماله .

ولقد ظل مؤتمر الصلح منعقدا من ٢٧ أبريل الى يوم ٦ مايو ، وان كانت المفاوضات قد وصلت الى أزمة يوم ٢٩ بسبب مسألة نزع السلاح والاستقلال الذاتى . ذلك أن مندوبى الريف قد أصروا على ضرورة قيامهم أنفسهم بنزع سلاح القبائل ، وان كانوا لم يعارضوا فى اشراف بعض الضباط الفرنسيين والأسبانيين عليهم فيها ، ولكن دون قيام القوات الفرنسية والاسبانية بهذه العملية . وأما فيما يتعلق بالاستقلال الذاتى داخل نطاق المعاهدات القائمة فان مندوبى الريف قد فشلوا فى فهم معنى تلك العبارة ، وذلك نتيجة لعدم فهم الخبراء الفرنسيين والاسبانيين أنفسهم لمعناها ، واعترافهم فى أثناء المحادثات بعدم امكان تفسيرها . وتشدد المندوبون الفرنسيون والاسبانيون مع مندوبى الريف بعد أن رفضوا الافراج عن كل الأسرى الموجودين لديهم فى الحال . وعرض مندوبو الريف الافراج عن الجرحى والمرضى من بين الأسرى ، وكذلك النساء والأطفال ، وأن يسهلوا عمل بعثة طبية

ترسل اليهم . وكان الفرنسيون والأسبانيون قد رفضوا فيما مضى السماح بمرور الأطباء والمهمات الطبية الى الجرحى فى منطقة الريف ، وكان يصعب عليهم بعد ذلك ، أن يتعللوا بمسألة الأسرى على أى شكل من الأشكال . وانتهى الأمر بأن طلب مندوبو الريف مهلة جديدة لاستشارة الأمير عبد الكريم ، ووافق الأوربيون على ذلك فى أول مايو ، وأعلنوا أنه اذا لم تقبل مبدئيا شروط ١١ أبريل الأساسية يوم ٦ مايو ، ويتم الافراج عن جميع الأسرى فى نفس اليوم ، فان الحرب ستستأنف فى صبيحة اليوم التالى .

وسافر ازرقان وحدو الى تارجست ، وعادوا منها يوم ٥ مايو ، وساعد أحد زوارق الطوربيد فى نقلهم ذهابا وايابا بين نيمور على الساحل الجزائرى وبين خليج الحسيمة . ولكن ما أن بدأ اجتماع المؤتمر يوم ٦ مايو حتى ظهر أن التعليمات التى اعطاها عبد الكريم لا تطابق الانذار الفرنسى الاسبانى . وترك مندوبو فرنسا واسبانيا الاجتماع بعد ربع ساعة من بدايته ، وسافر مندوبو الريف من وجدة فى نفس المساء . وبدأ الهجوم الفرنسى الاسبانى فى صبيحة اليوم التالى .

ولقد قامت الطائرات بالقاء قنابلها يوم ٧ مايو سنة ١٩٢٦ ، ثم تقدمت القوات الفرنسية والاسبانية فى صبيحة اليوم التالى صوب تارجست من اتجاهين خط نهر القرط ، ومواقع الحملة الاسبانية الى الداخل من خليج سيدايلا . حقيقة أن القـــوة الاسبانية قد اعترضتها مقاومة عنيفة ، وأن الأهالى قد كبدوها خسائر جسيمة ، ولكن التقدم الفرنسى الاسبانى لم يلق مقاومة كبيرة فى بقية النقط . واتصلت كل من القوتين بالأخـــرى فى يوم ٢٠ . واحتلت القوات الاسبانية أنوال يوم ١٨ ، ثم دخلت قوة من المغاربة غير النظـاميين الى تارجست يوم ٢٣ وقام الجنرال سان خورخو بمظاهرة فى نفس اليوم حين سافر من أجدير الى مليلة ، ولكى يثبت أن الاقليم الواقع بين هاتين النقطتين ، وهو

اقليم بنووردياغل ، قد أصبح مفتوحا ، وفى نفس اليوم وصلت خطابات من عبد الكريم الى الجنرال سان خورخو فى مليلة ، والى ستيج فى فاس ، مطالبة بوقف العمليات الحربية .

ولا شك أن الأمير البطل كان فى موقف لا يحسد عليه . حقيقة أنه كان قد نجح فى تنظيم رجاله وتسليحهم ، والنزول بهم الى عمليات تمكن فيها من ابعاد قوات المستعمرين ، وتهديدهم فى مناطق نفوذهم ، ولكن طول مدة الحرب ، وضعف الامكانيات ، مع فرض الحصار البحرى ، وزيادة عدد قوات الأعداء ، وتفوقهم فى التسليح والتموين ومعدات الحملة ، كانت كلها عوامل فى غير صالح أبطال الريف . لقد كان على هذا البطل ورئيس الجمهورية أن يشرف بنفسه على اعداد الثوار وتنظيمهم ، ويشرف كذلك على عملياتهم ، وفى منطقة صغيرة وفقيرة ، وان كانت غنية بروحها المعنوية وبنزعتها الاستقلالية . وكان عليه بعد ذلك أن يوفق بين العمليات الحربية ، وبين عمليات الانتاج الضرورية ، سواء أكان ذلك فى ميدان الزراعة أم الرعى ، وحتى لا تنتهى الأقوات من المجاهدين ، وهم فى خط النار . وكان على أبطال الريف أن يقسموا أنفسهم بين العمل وبين الجهاد ، وكل ذلك فى توافق وفى تكامل ، ومع أهداف محددة ، وبخطة متكاملة . ولكن طول مدة الحرب والتفاوت بين الامكانيات المادية الموجودة أجبرته على التفاوض . وحتى فى هذه العملية حاول الأمير أن يحصل على أحسن شروط ممكنة ، لبلاده قبل أن تكون لنفسه . وكان يعلم أن الاستمرار فى الحرب هى عملية انتحارية واضحة اذا ما استمرت الحرب الى أطول من ذلك ، وأن معنى دخول القوات الاسبانية والفرنسية لنزع السلاح من القبائل يعنى الخراب والدمار ، والقتل والسلب والنهب ، والسبى وهتك الأعراض . لقد كانت معركة ، وحتى آخر وقت . وكان يريدها ، وبنفسه ، ومع تلك الحفنة المؤمنة المخلصة التى وقفت الى جانبه ، وبصفتها من أركان الحرب ، ومن الوزراء والمستشارين، وكان قد قام بكل ما يمكنه أن يقوم به ، وما دامت العمليات قد

بدأت من جديد ، فعليه أن يوقفها . وما دام الفرنسيون والاسبانيون يعلقون على تسليمه شخصيا أهمية كبرى ، فليسلم نفسه حتى لا يتفرس المستعمرون فى أبناء البلاد . ولا شك أنه كان مريرا على نفس هذا القائد الوطنى والعسكرى أن ينسحب من اقليمه ومن بين أهله وجنوده . ولكنها كانت شجاعة فائقة منه أن يقوم بها .

وفى يوم ٢٦ مايو أمر الأمير عبد الكريم الخطابى باطلاق سراح الأسرى الأوربيين الموجودين لديه ، وفى الساعة الخامسة والربع من صبيحة اليوم التالى ركب الأمير فرسه ، ودخل وسط خطوط الفرنسيين . لقد جاء بنفسه ليسلم سيفه للعدو المنتصر . وقابلته القوة الفرنسية مقابلة قائد أعلى ، وحيته التحية العسكرية ، ثم سافر فى اليوم التالى الى تازا .

ويصعب علينا أن نتحدث عن حركة مقاومة بعد تسليم الأمير، وفى مثل هذه الأوضاع . لقد انهارت حركة المقاومة فى كل مكان ، وظهر التضارب بين عمليات بعض الفرق المكافحة التى كانت لا تزال صامدة فى الميدان . وكان رجال الريف قد بدأوا هجوما لهم فى جبهة تطوان بعد تجدد العمليات الحربية ، ولكن بعض عناصر الجبالا قامت فى وجه ممثلى جمهورية الريف فى منطقة شفشاون فى الأسبوع الأول من شهر يونيو . وعلينا أن نذكر أن بعض عمليات الكفاح ضد الاسبانيين قد استمرت فى بعض المناطق ، ولفترة من الزمن ، حتى وان كانت قصيرة . وكان هؤلاء المجاهدون لا يصدقون أن ثورتهم قد انتهت ، وأن الأجانب سيتمكنون من البلاد .

ولقد تمكن الاسبانيون من احتلال مناطق الريف وغمارة فى شهر يوليو ، ثم بدأوا عملياتهم ضد الجبالا فى أوائل أغسطس ، واحتلوا شفشاون يوم ١٠ منه . وبنهاية موسم عمليات سنة ١٩٢٦ أصبحت المنطقة الاسبانية من المغرب الأقصى تخضع لأول مرة فى تاريخها لحكم أجنبى فعلى ، هو الحكم الاسبانى ، الذى جاء باسم الحماية .

ولقد أعلنت السلطات الفرنسية أنها قد استولت على ما يقرب

من ٣٠٠٠٠ر٣٠ بندقية و ١٣٥ مدفعا و ٢٠٤ مدفع رشاش . ومما لا شك فيه أن أسلحة أخرى ظلت موجودة فى أيدى الرجـــال الأحرار . وعلى أى حال فان الفرنسيين أنفسهم قد تمكنوا كذلك من تثبيت أقدامهم فى تلك الفترة فى منطقـــة حمايتهم ، وذلك باحتلالهم لمنطقة تازا .

وانعقد مؤتمر فى باريس بين الفرنسيين والاسبانيين فى الفترة الواقعة بين ١٤ يونيو و ١٠ يوليو ، وذلك لتســـوية المشكلات السياسية الناتجة عن تسليم الأمير عبد الكريم ؛ وقد اختتم هذا المؤتمر أعماله بالتوقيع على اتفاقية خاصة بتحديد خط الحدود بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية ، وعلى أساس اتفاقية ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ . واتفقت الدولتان على ضرورة المحافظة على التعاون بينهما فى ميدان الرقابة البحرية لسواحل المغرب ، والتعـــاون الحربى والادارى على الأراضى الواقعة على الحدود . ووقع على هذه الاتفاقية بريان مع دى استيلا ، الذى حضر خصيصا لذلك لى باريس يوم ١٣ يوليو . وأخيرا فان هذا المؤتمر قد اتفق فيه على ارسال الأمير عبد الكريم الى المنفى ، واختاروا جزيرة ريونيون مكانا لنفى هذا الأسد .

واذا كانت الدول الاستعمارية قد تمكنت من التخلص من هذا القائد الوطنى ومن نفيه عن بلاده ، فانها كانت تعتمد على شخصيات مغربية فاترة ، أو متعاونة وضعيفة الشخصية ، لكى تنفذ عن طريقها سياستها الاستعمارية والاستغلالية فى شمال افريقية . وكان الاتفاق على ارسال الأمير المكافح الى جزيرة ريونيون قد تم فى نفس الوقت الذى كان فيه المولى يوسف ، سلطان المغرب الذى جاء بعد الحماية ، فى زيارة رسمية لباريس ، وقابل فى باريس باى تونس . وهكذا تجمعت القوى الرجعية والقوى المتقاربة معها ، ودل ذلك على بدء حركة جزر لعمليات الكفاح ضد الاستعمار فى شمال افريقية . ولكنها كانت حركة مؤقتة ، اذ أن حياة الأمير البطل كانت لا تزال تحمل الكثير من البأس والشدة على الاستعمار .

الفصل الرابع عشر

الأمـــير فى المنفى

اقلعت السفينة تحمل الأمير وأسرته وبعض أتباعه القريبين الى جزيرة ريونيون ، وحملت معها أملا ورمزا لكفاح أمة من أجل عزتها وكرامتها وحقوقها السليبة . واذا كانت المعركة العسكرية قد انتهت ، وبشكل يتعارض مع مصالح الوطنيين والمجاهدين ، فالواقع انها لم تكن الا مرحلة من مراحل هذه المعركة ، خاصة وأن تاريخ الشعوب لا يقاس بحياة رجل واحد أو جيل واحد ، بل يمتد من الأجداد الى الآباء والأبناء والأحفاد .

ولقد كان من الصعب على المراقب السـيـاسى أن يعتقد ، أو حتى يتنبأ بامكانية قرب نشوب ثورة جديدة فى بلاد المغرب وبلاد الريف ، بلاد الرجال الأحرار ، خاصة وأن حرب التحرير التى كان الأمير عبد الكريم الخطابى قد قادها ضد القوى الاستعمارية كانت قد امتدت الى فترة سنوات طويلة ، وأنهكت الاقليم . وكان الجميع ينظرون الى نفى الأمير عبد الكريم الخطابى على أنه النهاية الفعلية لمقاومة القوى الوطنية لقوى الاستعمار الغاشمة . وقليل من فكر فى ذلك الوقت فى امكانية عودة حركة التحرير الى هذه البلاد ، وقل منهم من فكر فى مشاركة الأمير مرة جديدة فى مثل هذه العمليات .

لقد كانت نكسة واضـحة فى حركة نمو القوى الوطنية ، وحصولها على حقوقها ، وممارستها لسلطاتها فى أراضيها . وقل الأمل فى قلوب العرب والمسلمين فى امكانية الوصول الى حلول واضحة باستخدام نفس الطريقة التى سار عليها الأمير عبد الكريم .

حقيقة أن معظم القيادات الوطنية فى العالم العربى والاسلامى بوجه عام ، وفى شمال افريقية بوجه خاص فى ذلك الوقت لم تكن من أنصار سياسة استخدام السلاح والمعركة المعلنة حربيا ضد الاستعمار ، وخاصة فى المناطق التى تميزت بوجود طبقة وسطى فيها ، طبقة فضلت استخدام السياسة والمفاوضة على استخدام الحرب والأساحة النارية ؛ ولكن ذلك لم يمنع القيادات العربية المجاهدة الأخرى الموجودة فى ذلك الوقت فى شمال افريقية ، وكانت تتمثل فى حركة السنوسيين ، وقيادة السيد عمر المختار لها ، من الاستماتة فى وجه الاستعمار ، وكأنها كانت تحارب من أجل اقليمها ، ومن أجل بقية أقاليم المغرب العربى فى نفس الوقت . ولكن علينا أن نذكر أن خروج عبد الكريم الخطابى من ميدان العمليات قد أدى من ناحية الى ضعف ثقة العرب والمسلمين فى طريقة الجهاد المسلح من ناحية ، وأدى من ناحية أخرى الى ازدياد عدد الحركات التى عملت على استخدام السياسة والمفاوضة سلاحا لمكافحة الاستعمار . لقد خمدت أصوات البنادق والمدافع ، وقلت دماء القتلى والشهداء ، ولكن ازداد ظهور عدد الأحزاب والحركات السياسية ، وبشكل يعتبر ظاهرة واضحة فى تاريخ المغرب العربى ، بعد نفى الأمير عبد الكريم الخطابى .

لقد سار الأمير الى منفاه ، وكأنه قد استسلم لقضاء الله وقدره ، وهو المسلم المؤمن بقضية بلاده . ومما لا شك فيه أنه لم يكن يفكر فى ذلك الوقت فى امكانية العودة الى بلاده ، ولا فى امكانية مواصلته للمعركة ، من قريب أو حتى من بعيد . ولكن الأمير عبد الكريم الخطابى كان قد ترك مبادىء واضحة ، وبذر بذورا قوية ، وفى أرض خصبة ، وبين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . كان الأمير عبد الكريم الخطابى قد بذر بذور الثورة ، ووضع أسس الوحدة ، على الأقل بين بلاد المغرب العربى ، والتى وحد الله بينها ، ووفق بين قلوب أبنائها ، بعد أن هداهم الى الاسلام ، واذا كان من طبيعة الثورة أن تنتشر وتشع حول المركز

التى تنبعث منه ، وبشكل لا يعرف حدودا ، ولا يعرف قوميات الا فى نطاق الثورة ونطاق الحرية ، فان رجالا من المغاربة قد تلقفوا هذه المبادىء وعملوا من أجلها ، وان كانت أسلحتهم قد اختلفت عن أسلحة الأمير عبد الكريم الخطابى .

ذهب الأمير عبد الكريم الخطابى الى المنفى فى سنة ١٩٢٦ ، وظهرت فى نفس السنة جمعية « نجم شمال افريقيـــة » التى لمع اسمها وزاد نشـــاطها بين المغاربة فى كل من المغرب الأقصى والجزائر وتونس . واذا كان الأمير عبد الكريم الخطابى قد اتخذ السلاح وسيلة فى أيدى المجاهدين من أبناء الريف ، فان مصالى الحاج سيتخذ الحجة السياسية ، وضرورة الوصول الى تغيير سياسى واجتماعى واقتصادى ، أساسا لكفاحه ضد الاستعمار الأوربى فى بلاد المغرب العربى . لم تنته المعركة بهذا الشكل اذن بخروج الأمير عبد الكريم الخطابى ، وبتسليم السلاح والبنادق والمدافع لقوات الاحتـلال الفرنسى والاســبانى ، بل أخــذ عمال المغرب العربى ، وبأقاليمه الثلاثة ، فى النزول الى ميدان معركة جديدة ، كانت هى نفس المعركة السابقة ، وان اختلفت وسائلها وأدوات العمل فيها . ومما لا شك فيه أن مصالى الحاج كان يعتبر نفسه فى هذا الميدان خليفة لذلك القائد الأمير ، والبطل الزعيم الذى ذهب الى المنفى . وممـــا لا شـــك فيه كذلك أن الأمير عبد الكريم الخطابى كان يجد فى عماية «نجم شمال افريقية» استمرارا لجهاده ، ولكفاحه ضد الاستعمار . واذا كانت ظروف المعركة هى التى حتمت على رجال المغرب بعـــد ذلك تقســيم حركتهم ، فمما لا شك فيه أن استمرار كفاح المغاربة كان قد نتج عن جهاد أمير الريف .

لم يكن من السهل على هذا الأسد الأسير أن يعيش فى الأسر، ويعيش فى المنفى بين أسرته وأتباعه ، بعيدا عن بلاده ، بعد أن عاش المعركة بين رجاله . وكان الأمير البطل قد استسلم لمصيره ،

ولما كتبه الله عليه ، وعلى بلاده . ولم يناقش ، ولم يجادل مع السلطات الموجودة فى ريونيون ، أو حتى السلطات الفرنسية فى أوربا نفسها ، عن مصيره ومصير أسرته . ويؤكد ليون جابريللى أنه قد عاش فى عزلة عن العالم ، وعن الحرب وعن السياسة ، وامتنع حتى عن الشكوى ، حتى من سوء المعاملة وسوء الجو ، حتى سنة ۱۹۳۲ . لقد كانت ست سنوات ثقيلة عليه وعلى أسرته ، والغريب أنها قد انتهت فى نفس الوقت التى انتهت فيه حركة كفاح وجهاد عمر المختار فى ليبيا أمام الايطاليين .

كان جو الجزيرة لا يصلح لسكنى رجل من رجال الجبال ، اذ ان درجة الحرارة كانت مرتفعة ، ونسبة بخار الماء كبيرة فى الهواء . وكان من الصعب على رئتى هذا الأمير تحمل هذا المناخ الذى لم يعتده ، ويبعد كل البعد عن كونه صحيا . وكان الأمير يقضى أوقاته بين الصلاة وقراءة القرآن ، والاعتناء بأولاده وبناته ، والتدريس بنفسه لهم . ولقد كانت حياته فى المنفى حياة عزلة وابتعاد عن كل ما فى الدنيا ، وساعدته على ذلك قوة الايمان .

لم يكن الأمير عبد الكريم يحمل حقدا أو ضغينة لفرد أو لدولة ، ولم يحملها للفرنسيين أو الاسبانيين ، رغم أنه كان لا يتراجع عن مبادئه الأولى ، التى أعلنها وحارب من أجلها ، وهى أن الحرية تؤخذ ولا تمنح . ولكن سوء الأحوال الجوية فى الجزيرة ، دفعه الى الضجر ، والى الشكوى ، خاصة وأن أبناءه وبناته أخذوا يشبون ، واحتاجوا الى التعليم ؛ وكان من المنطق أن يفكر فى مستقبل بناته اللاتى تحولن من فتيات صغار الى آنسات يافعات . وفى بداية الثلاثينات اشتكى الأمير الى حاكم الجزيرة من سوء الأحوال المناخية فيها ، ثم اشتكى سنة ١٩٣٤ وشرح أنه قد أعطى كلمته بالانسحاب من الميدان ، وليس هناك داع لعقوبة أسرته وأبنائه وبناته معه فى تلك الجزيرة المعزولة عن العالم . ثم اشتكى فى سنة ١٩٣٦ وفى سنة ١٩٣٨ . لقد اشتكى أربع

مرات ، وفى خلال فترة نفى وصلت الى احدى وعشرين سنة ؛ وكان مقلا فى شكواه ، ودل ذلك على صفة من صفاته الأساسية ، وهى الاباء والشمم ، اذ أنه لم يشتك الا حينما طفح الكيل .

ولكن فرنسا لم تكن مستعدة طوال مدة هذا الوقت لأن تعمل على تغيير مكان الأمير عبد الكريم . وكانت قد احتفلت بالعيد المئوى لاحتلالها للجزائر ، وامتدت فيها موجة من النفوذ الاستعمارى سمحت للمنتفعين من هذه الحركة برفع أصواتهم ، واعطائها لونا يختلف فى شكله عما كان عليه فى حقيقته ، والادعاء بأن فرنسا قد أتت بالسلم والحضارة والمدنية الى بلاد شمال افريقية . ورغم أن فرنسا قد شهدت فى الثلاثينات تأزم العلاقات مع اسبانيا ، شقيقتها اللاتينية ، وشريكتها فى حكم المغرب واستغلاله والتحكم فيه — رغم ذلك فان فرنسا لم تكن توافق على اتخاذ سياسة ملاينة مع الأمير عبد الكريم الخطابى ، سياسة قد تغضب اسبانيا .

وظل الأمير فى منفاه ، وان كان قد ظل هناك بجسده ، اذ إن روحه كانت مع بلاده ، بلاد العروبة والاســـلام ، بلاد الحرية والاستقلال ، بلاد العزة والكرامة . وظلت الأحوال على ما هى عليه الى أن جاءت الحرب العالمية الثانية ، ثم انتهت هـــذه الحرب والأمير فى منفاه . وتطورت الأوضاع والأمور فى بلاد المغرب العربى ، بل وفى كل العالم العربى والاسلامى ، كما تطورت فى الدول الأوربية نفسها . وبعد نهاية هذه الحرب ظهرت عوامل جديدة فى الميدان، أثرت فى تاريخ الأمير المنفى ، وأثرت فى تاريخ بلاده ، وفى تاريخ شمال افريقية ، وعلاقتها بالغرب وبالاستعمار .

الفصل الخامس عشر

الأمير فى القاهرة

كانت فرنسا قد نعمت بفترة هادئة لحكمها فى أقاليم شمال افريقية ، فى الفترة السابقة لاعلان الحرب العالمية الثانية . وكانت تستغل الأقاليم الثلاثة فى تزويد نفسها بما يلزمها منها من ثروات زراعية ومنجمية ، وحتى فى القوى البشرية اللازمة للعمل فى المناجم والمصانع ، واللازمة لاستخدامها فى القوات المحاربة ، كوقود للنيران . وكانت فرنسا قد اختارت الابن الثالث للمولى يوسف لكى يصبح سلطانا على المغرب الأقصى بعد وفاة والده سنة ١٩٢٧ ، ورأت فيه أميرا مهذبا نبيلا . واعتقدت أن فى وسعها التأثير عليه حتى تستخدم اسمه وسلطته ستارا تخفى وراءها عملية استغلالها للاقليم . وكانت فرنسا قد أمنت على مصالحها ، وكذلك امتيازاتها ، فى هذا الاقليم بنفيها الأمير عبد الكريم الخطابى بطل الريف بعيدا عن بلاده . أما بالنسبة لاسبانيا فان استمرار الثورات فيها بين الملكيين والجمهوريين ، ثم تبلور المعارك على أرضها بين الديمقراطيين والشيوعيين والفاشستيين ، كان يستنزف مواردها فى داخل شبه جزيرتها . ولكن اسبانيا لم تكن فى حاجة الى كثير من الموارد ، تأتى اليها من الخارج ، اذ أنها كانت أعجز من أن تتمكن من استخدامها ، وكان القضاء على حركة مقاومة رجال الريف قد سمحت لاسبانيا ببضع سنوات من الحكم الهادىء فى منطقة نفوذها فى شمال المغرب الأقصى .

وظلت الأحوال على ذلك حتى نشبت الحرب العالمية الثانية ، وجاءت تغيرات كبيرة لكى تؤثر فى القوى الموجودة فى الاقليم ، وفى

القوى التى تفرض نفسها عليه ؛ ذلك أن فرنسا لم تتحمل هجمات قوات هتلر على حدودها رغم تحصنها وراء خط ماجينو المنيع ، واستسلم مليون ونصف مليون جندى فرنسى بعد فترة قصيرة من بدء الحرب ، وبعد تقدم الوحدات المصفحة الألمانية بقيادة الجنرال روميل فى منطقة شمال وشرق فرنسا . واذا كان بعض العسكريين الخبراء يعرفون فى ذلك الوقت أهمية المرونة فى تكتيك المعركة ، فانهم لم يكونوا هم المسيطرين على وزارة الحربية الفرنسية ، أو على القيادة العامة الفرنسية فى ذلك الوقت . واضطرت حكومة باريس الى ترك عاصمتها ، وحاولت الذهاب الى فرساى ، ثم قررت التقهقر حتى بوردو . وأخيرا استقر رأيها مع الماريشال بيتان على الالتجاء الى فيشى ؛ كما استقر رأيها على عقد الهدنة مع النازيين .

حقيقة أن سقوط فرنسا وتسليمها بهذا الشكل كان صدمة عنيفة ، وكان عاملا مؤثرا على بقائها كدولة عظمى ، ولها مستعمرات هنا وهناك ؛ ولكن هذا لم يمنع من ظهور قيادة جديدة قادها الجنرال ديجول بعد فراره والتجائه الى لندن . وان ما يهمنا من هذا التغيير هو أن فرنسا قد انهزمت ، وأصبحت لها حكومتان ، وكل منهما تعمل ضد الأخرى ، وكل منهما تحاول مد نفوذها الى شمال افريقية . ونتيجة لخضوع السلطات الفرنسية هناك لحكومة الماريشال بيتان ولنفوذ لجنة الهدنة الألمانية ، فان ذلك لم يمنع عددا من رجال المغرب من التفكير فى امكانية الحصول على بعض حقوقهم من فرنسا فى ذلك الوقت . واذا كان بعض رجال الجزائر قد اجتمعوا وأصدروا « البيان » الذى سيصبح أساسا لظهور حزب البيان فيما بعد ، فان عددا من رجال المغرب الأقصى قد اجتمعوا وقرروا ضرورة العمل من أجل « الاستقلال » ؛ واذا كانت أسماء علال الفاسى والحاج أحمد بيلافريج قد ارتبطت باسم حزب الاستقلال ، فلا شك أن شخصية السلطان المولى محمد بن يوسف كانت سندا قويا ، ومشجعا كبيرا لهم فى اتخاذ هذا الطريق الوطنى .

ولا شك أن سلطان المغرب كان قد نضج وتطور فى هذه المرحلة ، ورأى ضرورة وقوفه الى جانب حركة الاستقلال ، رغم أنه ذو سيادة تحد من عملية نزوله الى الميدان السياسى . وهكذا وجد المغرب الأقصى من جديد شخصية قائد تظهر فى الميدان ، وان كان طريق حزب الاستقلال يختلف عن الطريق الذى كان الأمير عبد الكريم الخطابى قد سار فيه . واذا كان الأمير قد استخدم السلاح وسيلة يصل عن طريقها الى تحقيق أهدافه ، فان الحركة القومية والوطنية المغربية ورجال حزب الاستقلال سيستندون الى السياسة للوصول الى أهدافهم .

لقد كان من الصعب على فرنسا أن ترى ازدياد نفوذ وسلطة المولى محمد بن يوسف فى بلاده وعلى رجاله ، وبطريقة تتعارض مع مصالحها وامتيازاتها ، ولكن فرنسا كانت مغلوبة على أمرها ، وخاصة أمام ذلك الانقسام بين أتباع بيتان ورجال ديجول ؛ وفى الوقت الذى بدأت فيه الولايات المتحدة الأمريكية فى النزول الى ميدان العمليات الحربية ، وعملت على وضع أقدامها فى أقاليم شمال افريقية . واذا كان هناك تعارض وتنافس بين القيادتين أو الاتجاهين الفرنسيين وبعضهما ، فقد ظهر هناك تنافس جديد بين الفرنسيين والأمريكيين؛ خاصة وأن بعض الاتجاهات الأمريكية كانت ترسم أمر فرض نفوذها بدلا من النفوذ الفرنسى فى الممتلكات الفرنسية السابقة ، وكانت بعض الاتجاهات الأمريكية الأخرى تكتفى بالتفكير فى منع النفوذ الفرنسى من العودة الى تلك المناطق ، وعلى أساس حصولها على استقلالها ، ومنع زيادة النفوذ الفرنسى من الوصول الى ما كان عليه قبيل الحرب العالمية الثانية . وأمام هذا التضارب ظهرت الفرصة واضحة لكى يغتنمها الوطنيون ويصلوا الى محققات واضحة .

لقد جاء كل من ونستون تشرشل وروزفلت فى ذلك الوقت الى فندق « الأنفا » فى ضواحى الدار البيضاء لتنظيم أمر انزال القوات

الأمريكية فى بلاد شمال افريقية ، وبناء القواعد البرية والجوية ، والطرق التى ستسير عليها العمليات . ولقد اتصل روزفلت فى ذلك الوقت بالمولى محمد بن يوسف سلطان المغرب ، وتحادث معه ، وبدون اذن من سلطات الحماية الفرنسية هناك . ولا شك أن هذه المقابلة قد أثرت فى سلطان البلاد ، وأثرت فى سلطات الحماية ، وفى علاقة كل منهما بالآخر ؛ وستبدأ هذه العلاقات فى التدهور منذ هذه الفترة ، وستزيد سلطات الحماية من تشددها على سلطان البلاد ، فى الوقت الذى يقرر فيه السلطان تأييده لحركة الاستقلال الوطنية .

ولقد استمر تدهور هذه العلاقات ، وخاصة بعد انتصار الحلفاء على النازيين ، وازداد وضوحا بعد اقصاء الجنرال ديجول عن الحكم فى سنة ١٩٤٥ . وأصبحت شخصية الجنرال جوان ، وهو المتعصب ذو التفكير المتجمد ، تعتبر أهم شخصية فرنسية فى شمال افريقية فى ذلك الوقت ، وأهم شخصية عسكرية فى فرنسا نفسها . وكان جوان من رجال الاستعمار اليمينيين ؛ وكان قد نشأ فى الجزائر ، وفى ذلك المناخ الفكرى والاقتصادى الذى لا يدين الا بالتعصب ، وبضرورة التحكم ، وباحتقار كل ما هو وطنى ، وخاصة فى خارج حدود فرنسا . واعتقد جوان أن فى وسعه تسيير الملك محمد الخامس ، الذى حصل على لقب الملك بعد قرار حزب الاستقلال . ولكنه أخطأ اذ أنه كان يواجه أسدا قد صمم فى هذه المرحلة على ضرورة الوصول ببلاده الى الاستقلال . وهكذا زاد التناقض بين القوى الموجودة فى الميدان ، وفى وقت تغيرت فيه الأوضاع فى العالم كله بشكل عام ، وفى البلاد العربية بشكل خاص .

كانت الدول العربية فى المشرق قد تمكنت ، فى خلال السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية من تجميع قواها ووضع الأسس لانشاء تجمع عربى ، تبلور أخيرا منذ سنة ١٩٤٤ فى شكل جامعة الدول العربية . وكان انشاء جامعة الدول العربية ، يعتبر فى حد

ذاته وفى ذلك الوقت شعارا جديدا لم يسمع به العرب منذ زمن بعيد ؛ وكان أملا يراود عقول العرب وأمانيهم ، ويزيد من حماسهم، ويوجههم صوب تكتيل الجهود ، والعمل من أجل العروبة .

وهكذا زاد العامل القومى ظهورا واشتدادا فى بلاد المغرب ، فى الوقت الذى تجمدت فيه السياسة الاستعمارية ، وفى الوقت الذى كان يمهد لانهاء الاستعمار ، وفى كل ميدان .

لقد عملت السلطات الفرنسية على التشدد والتشبث تجاه محمد الخامس ، وكانت تشعر بالضعف ، وتحاول الظهور بمظهر القوة ، واستخدمت ذلك أمام رجال أحرار ، فزاد تصميم أحرار المغرب على ضرورة الوصول الى الحقوق الطبيعية للبلاد .

ومع زيادة تدهور العلاقات بين الفرنسيين والمغاربة ، وزيادة التشدد تجاه محمد الخامس ، قررت الحكومة الفرنسية اتخاذ اجراءات لها لون من الكرم والتسامح حيال بطل الريف المنفى فى تلك الجزيرة الصخرية فى المحيط الهندى ، وقررت امكانية الافراج عن الأمير عبد الكريم الخطابى ، وعودته لكى يستقر فى فرنسا نفسها. ولا شك أن السلطات الفرنسية الاستعمارية كانت ترسم فى ذلك الوقت أمر التلويح أمام محمد الخامس بامكانية عودة أسد الريف السابق الى بلاده ، حتى تجبره على التساهل فى معاملته معها ؛ وان كانت هذه السياسة قد انتهت بفشل فرنسا ، مع الرجلين .

لقد اتخذت وزارة الخارجية الفرنسية — وهى المسئولة عن شئون الحماية فى المغرب الأقصى ، والتى هى جهة الاختصاص فى العلاقات مع اسبانيا — قرارا فى الأسبوع الأخير من شهر مارس سنة ١٩٤٧ بنقل الأمير عبد الكريم الخطابى وأسرته وأتباعه الى فرنسا . وعهدت هذه الوزارة الى ليون جابريللى ، الذى كان قد أحيل الى المعاش فى ذلك الوقت ، بمهمة اختيار مسكن يليق بالأمير وبأسرته فى أحد الأماكن التى تقع فى جنوب فرنسا ، وأعطته الميزانية

اللازمة للقيام بهذه المهمة ، سواء أكان ذلك لشراء المقر ، أم لتأسيسه ولتزويده بكل ما يلزم . وكان هناك تفكير فى امكانية اقامة الأمير في بو التى كانت فرنسا قد نفت اليها الباى محمد المنصف باشا ، بعد ان كانت قد خشيت من نفوذه فى تونس . ولكن الحكومة الاسبانية احتجت على اقامة أسد الريف قرب حدودها الشمالية ؛ فاضطرت فرنسا الى أن تختار له مقرا جديدا قرب مرسيليا ، والى الشرق من مصب نهر الرون . وانها لقصة ممتعة تلك التى يرويها لنا ليون جابريللى عن مهمته لعمل كل ما يلزم لاستقبال الأمير ، ولاعداد مقره الجديد ، خاصة وأن وزارة الخارجية الفرنسية لم تكن ترغب فى معاملة الأمير فى ذلك الوقت على أنه فى « المنفى » أو أنه فى اقامة تحت الحراسة ، أو حتى اقامة محدودة ، بل كانت قد قررت أن يعيش فيها .

وسارت التجهيزات على قدم وساق فى فرنسا ، وركب الأمير وأسرته وأتباعه احدى السفن ، وجاء بعض أقاربه من المغرب نفسه لاستقباله عند رسو السفينة فى مارسيليا . ولكن السفينة تأخرت، ثم جاءت الأنباء بعد ذلك بأنها وصلت الى فرنسا بدون الأمير .

وكانت مفاجأة للجميع . كانت السفينة التى تقل الأمير قد اخذت سيرها فى احدى القوافل من السويس شمالا الى بورسعيد ، ثم اكتشف طاقم السفينة أن الأمير وأسرته وأتباعه قد اختفوا من على ظهر السفينة . ثم صدر بلاغ بأن الأمير قد طلب الالتجاء السياسى الى مصر ، وأن حكومة القاهرة قد أعطته هذا الحق ، والحقيقة أنها كانت تفخر به .

ولم تثبت حتى الآن الطريقة التى تم بها نزول الأمير من السفينة الى أرض مصر ، وعلاقة ذلك بالبحارة على السفينة ، وبسلطات الميناء ، رغم أن المنطقة كانت مليئة بقوات الاحتلال البريطانية ، وكانت الشركة العالمية للملاحة فى قناة السويس تشتمل على أكثر من موظف فرنسى متعصب ، علاوة على اتصالها بأجهزة فرنسا

السرية . وكان التجاء الأمير الى القاهرة يمثل معنى جديدا فى تطور المشكلات العربية فى ذلك الوقت ، وفى تطور مراكز القوى فى العالم العربى ، ويدل على أن القاهرة قد أصبحت مركزا رأيسيا يلتجىء اليه الأحرار .

واذا كانت فرنسا قد اعتبرت أن فى وسعها استخدام الأمير عبد الكريم الخطابى كأداة لاخافة محمد الخامس وارهابه فانها قد فشلت فى مسعاها . وقويت روح الكفاح الوطنى فى بلاد المغرب الأقصى ، وظهر واضحا فى كل القطاعات .

وحاولت فرنسا أن تعطى خطابا مكتوبا الى محمد الخامس لكى يقرؤه بمناسبة دخوله الى مدينة طنجة فى يوليو سنة ١٩٤٧ ، وكان هذا الخطاب يشتمل على فقرة تتحدث عن « المحققات » التى حصلت عليها البلاد فى ظل الادارة الفرنسية ، وبتوجيه من حمايتها، ولكن محمد الخامس رفض قراءة هذه الفقرة ، وأمام الجماهير ترك النص المكتوب جانبا ، وأضاف عليه فقرات أخرى لم تكن فرنسا توافق عليها أبدا ؛ ذلك أنه قد تحدث عن أن المغاربة هم مسلمون وعرب ، ومن الطبيعى أن تتجه أنظارهم الى اخوانهم العرب فى بلاد المشرق ، وأن يعملوا على زيادة الروابط التى تربطهم بهم ، والتى حاول الزمن أن يقلل منها .

لقد فر أسد الريف من أيدى الفرنسيين ، ووقف ملك الاستقلال يعلن استقلال بلاده ونهاية الاتجاه الاقليمى ، وضرورة السير مع المجموع العربى . وكاأت ضربة قوية للسياسة الاستعمارية التى سارت عليها فرنسا فى الاقليم ، وستعجز فرنسا بعد ذلك عن أن تتمكن من الوصول الى تفاهم مع محمد الخامس ، وفى الوقت الذى أصبح فيه مجرد بقاء الأمير عبد الكريم الخطابى فى القاهرة كابوسا يزعج سياستها الاستعمارية . وستفشل فرنسا فى السيطرة على

الموقف ، رغم استخدامها للشدة والقوة والعنف ؛ اذ أن الأمر كان قد خرج من أيديها . كما أن وجود قيادتين ، الواحدة فى المغرب نفسه ، وهى قيادة سيد البلاد ، والثانية فى القاهرة ، وتتمثل فى كفاح بطل الريف ، سيعمل على نوع من التنافس بين القيـــادتين وبعضهما ، ومن أجل الصالح العام . كما أن استناد الحركة الوطنية المغربية الى امكانيات المغرب ذاته ، والى امكانيات القاهرة ، سيؤدى الى قهر الأعداء .

الفصل السادس عشر

الأمـــير وجبهـــات التحـــرير

أصبحت القاهرة فى الفترة التالية لنهاية الحرب العالمية الثانية مركز استقطاب للقوى التحررية فى العالم العربى . وكانت القاهرة وحكومتها هى التى قامت بالدور الرئيسى فى تجميع كلمة العرب ، وفى انشاء جامعة الدول العربية . وكانت هذه العاصمة قد أخذت تشهد مجىء الملوك والرؤساء اليها ، للتشاور فى المشكلات العربية الجماعية ، والتى كانت تعبر عن كثير من المعانى لتوحيد المجهودات العربية ، والوصول الى محققات واضحة فى هذا الميدان . وكانت هناك مشكلة فلسطين ، ومشكلة استقلال ليبيا ، ومشكلات التحرر فى أقاليم المغرب العربى . وكانت القوى العربية النامية قد أخذت فى النضوج ، فى الوقت الذى قصمت فيه الحرب العالمية الثانية ظهر القوى الاستعمارية ، وسهلت الطريق أمام القوى النامية . وزاد تبلور المصالح بين المعسكرين ، الوطنى والاستعمارى ، بعد اعلان انشاء الأمم المتحدة ، واعلان حقوق الانسان ، وفى الوقت الذى أخذت فيه دول الكتلة الغربية الاستعمارية فى منافسة بعضها على مناطق النفوذ ، وفى نطاق العمليات الاقتصادية ، والذى حاولت فيه الدول العظمى الكبيرة ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، أن تزيد من امكانياتها على حساب الدول الاســـتعمارية التى أنهكتها الحرب ، مثل بريطانيا وفرنسا ــ فى هذا الوقت ازداد فيه تكتل القوى العربية ، وازداد نموها ، للحصول على حقوقها ؛ وحاولت الافادة فى ذلك من التناقض والتنافس الداخـــلى ، فى المعسكر الاستعمارى نفسه .

وكان الشعور بالضعف لدى الدول الاستعمارية ، وشعورها بثقل كاهل ديون الحرب عليها ، يجبر الدول الاستعمارية السابقة، وخاصة انجلترا وفرنسا ، على القيام بمحاولات لتخفيض نفقاتها ، حتى تتمكن من دفع جزء من ديونها ، وتتمكن من الاحتفاظ بمستوى معيشة معقول بالنسبة للمواطنين فى بلادها . وكانت الولايات المتحدة تساعد على هذا الاتجاه ، بمشروعات الانماء والتعمير ، التى خصصتها لأوربا ، والتى كانت قد قاست الكثير من دمار الحرب .

وخشيت فرنسا من وصول أى عناصر من عرب المشرق الى المغرب وبلاده فى ذلك الوقت ، بل خشيت حتى من اتصال العناصر العربية الشرقية بأبناء المغرب المقيمين فى فرنسا نفسها ، سواء أكان ذلك للعمل أم للدراسة ، أم حتى فى المواسم السياحية . ورفضت فرنسا وصول الأساتذة المصريين اللازمين لانشاء المعهد المصرى فى الجزائر ، كما رفضت انشاء هذا المعهد فى طنجة ، رغم أنها كانت مدينة دولية . ولكن هذا التشدد من جانب فرنسا لم يمنع استمرار نمو الحركة الوطنية فى جميع أقاليم المغرب العربى ، واتجاه أنظار هؤلاء المجاهدين الى القاهرة ، وخاصة بعد أن أصبحت مركز تجمع القوى التحررية ، ومقر الأمير عبد الكريم الخطابى ، وفى الوقت الذى اعتمدوا فيه على أنفسهم ، وعلى قوة ايمانهم بالله ، وبعدالة قضيتهم . واذا كانت الحركة التحررية لبلدان وأقاليم المغرب العربى قد عملت فى ذلك الوقت فى فرنسا نفسها ، واستندت الى القاعدة الشعبية المناضلة الموجودة فى البلاد ، فانها قد استندت كذلك الى القاهرة ، واستندت الى الأمير عبد الكريم الخطابى فيها .

ورغم أن التجاء الأمير عبد الكريم الخطابى الى القاهرة كان يعنى عدم اشتغاله بالسياسة ، الا أن أحدا فى القاهرة لم يكن فى وسعه أن يمنع هذا الرجل وهذا القائد من أن يستمر فى الاشعاع ، ويشرف على عملية التنظيم ، وعلى توجيه العناصر المغربية والجزائرية والتونسية ، والتى كانت قد بدأت فى الوصول الى القاهرة كذلك .

كان الأمير عبد الكريم الخطابى يمثل قطبا من الأقطاب ، وقائدا وزعيما ، وكان رئيس دولة ثورية حاربت الاستعمار ، ولمدة سنوات طويلة . وكان أملا بالنسبة للمكافحين وللمناضلين ، سواء من المغرب أو المشرق ، وأصبح من الطبيعى ومن المنطقى أن يزوره الرجال والقواد والزعماء ، وبصفته مجاهدا وقائدا ، وأبا روحيا لهم ، فى حركتهم الوطنية .

وصل علال الفاسى الى مصر ، ووصل اليها كذلك الحبيب بورقيبه ، بعد مقامرته « العنيفة » حين هرب من تونس، على ظهر أحد قوارب الصيد المتجهة شرقا ، ثم واصل السير حتى دخل حدود مصر . ثم توافد بعد ذلك عدد من رجال الجزائر والأحرار فيها ، والتفوا جميعا حول الأمير عبد الكريم الخطابى .

واذا كانت المرحلة الأولى لنشاط هؤلاء الرجال ، قد انحصرت داخل نطاق الكفاح السياسى ، اذ أن غالبيتهم لم تكن من الرجال العسكريين أو الذين يمكنهم منازلة قوات الاحتلال الأجنبى بأسلحته، الا أن هذه المرحلة كانت تعتبر تمهيدا واستعدادا للمعارك التالية التى سينزلون اليها بعد وضوح الرؤية ، واقتناعهم بفشل كل محاولة حتى للاستنجاد بالضمير العالمى ، وبالأمم المتحدة ، رغم تحدث الجميع عن حقوق الأمم فى الحرية والاستقلال ، وتقرير مصيرها ، ووضع مبادىء تصفية الاستعمار .

شهدت القاهرة فى هذه المرحلة الأولى نشأة مكتب المغرب العربى فى القاهرة . وكان الأمير عبد الكريم الخطابى هو مركز نشاط وتوجيه هذا المكتب ، حتى وان كان نشاطه قد اقتصر على الناحية السياسية. ولقد اشتمل هذا المكتب على هيئات داخلية ، تمثل نشاط كل من المغاربة والتونسيين والجزائريين ، واحتل علال الفاسى ، ومن بعده الحبيب بورقيبه مهام أمانة هذا المكتب ، وتحت اشراف الأمير عبد الكريم الخطابى . ولا شك فى أن علاقات الأمير عبد الكريم الخطابى بهم كانت علاقة الأب المناضل بأبنائه المرفهين الفاترين ، اذ

أنه كان يصعب على هذا الأسد المناضل أن ينسى عملياته ومعاركه التى خاضها بالسلاح ، ودفع فيها الثمن غاليا من الدماء والأرواح ، لكى يقتنع بمجرد احتجاجات وطلبات وشكاوى سياسية ، ويشاهد خوف هذا الزعيم أو ذاك من استخدام الجهاد والسلاح من جديد فى ميدان تحرير بلاد المغرب . ولا شك كذلك فى أن مجىء بعض العناصر الجزائرية وانضمامها الى هذا المكتب ، وعملهم بطريقة ثورية أكثر من طريقة زعماء تونس والمغرب السياسيين ، هى التى كانت تعتبر أملا أمام الأمير عبد الكريم الخطابى ، لعودة الحركة الوطنية التحررية الى ما كانت عليه ، وفى أيدى رجال أحرار مجاهدين .

وكانت الأمور تتطور بسرعة فى القاهرة فى ذلك الوقت ، نتيجة لزيادة ظهور المتناقضات داخل التشكيلات السياسية المصرية نفسها ، وخاصة فيما يتعلق بتعدد الأحزاب ، وعلاقتها ببعضها ، وعلاقتها بالقصر ، أو بسلطة بريطانيا فى المنطقة . وكانت روح الثورة تزداد تذمرا فى نفوس الأحرار المصريين ؛ وخاصة عند تلك الحفنة من الرجال التى كانت قد شاهدت مهازل حرب فلسطين ، وخرجت من بلادها لكى ترى المصائب ، وتقرر ضرورة العمل علي تغيير الأوضاع ، ولو بالقوة . وكانت الثورة فى القاهرة ، وبداية التحرر، سواء من النفوذ الأجنبى ، أو من الفساد الداخلى . وظهرت مجموعة من الرجال الثوريين ، يؤمنون بالمساواة ، ويهدفون الى العدالة ، ويحاولون تحرير أنفسهم وبلادهم ، ومساعدة اخوانهم وأبناء أعمامهم ، على الوصول الى نفس النتائج ، وفى تكامل بين البلاد العربية كلها .

واذا كانت السنوات الأولى للثورة المصرية بعد سنة ١٩٥٢ قد عجزت عن اظهار الثورة المصرية فى شكلها الواضح ، ونتيجة لانشغال الثورة بالمتناقضات الداخلية ، وبالأعداء الخارجيين ، الا انه سرعان ما وضحت ملامح هذه الثورة التحررية الوحدوية ، وخاصة بعد أن

أعلنت الجمهورية ، وأصبح التحرير هو شعار القاهرة ، الذى اتخذه الرجال الأحرار شعارا لهم ، والذى امتد بسرعة من المحيط الى الخليج . واذا كانت القاهرة قد أنشأت لنفسها « هيئة التحرير » فسرعان ما ظهرت « جبهات التحرير » للمغرب الأقصى ولتونس وللجزائر ، ولكل اقليم عربى صمم أبناؤه على الوصول الى الحرية . وساعد كل ذلك على تحول مكتب المغرب العربى الى مجموعة هيئات تحرير ، خاصة بكل من تونس والمغرب والجزائر .

ولقد كان للسياسة التى اتبعتها الدول الاستعمارية ، وخاصة فرنسا ، فى بلاد المغرب العربى ، وعملها على التفريق بين أقاليم هذه المنطقة ـ علاوة على درجة نضج ، ومراحل نمو الحركات الوطنية ، والقيادات السياسية الموجودة هناك ـ أثر على وجود نوع من عدم التوافق بين حركات هذه الجبهات ، التى قامت لتحرير المغرب العربى ، والتى كان الأمير عبد الكريم الخطابى أبا روحيا ، ومرشدا سياسيا وعسكريا لها .

كانت الحركة الدستورية الجديدة فى تونس ، والتى نشأت ونمت بقيادة الحبيب بورقيبه ، تمثل قطاعا متحررا من أبناء تونس، تعلم أغلبهم تعليما غربيا ، وسبقوا فى عملية كفاحهم السياسى معركة الدستور على معركة الاستقلال ؛ أى بمعنى آخر اختار أعضاء هذه الحركة ـ وهم من الطبقة المتوسطة وأبناء التجار والموظفين ـ سلاح السياسة والمفاوضة والاحتجاج ، مع المظاهرات والاضرابات، وسيلة يصلون عن طريقها الى اجبار فرنسا على تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى البلاد . وكان تعليمهم الغربى ، واشتغال عدد كبير منهم فى القانون ، يجبرهم كذلك على محاولة تحديد الأوضاع والحقوق والمواقف ، حتى وان كان ذلك بين الحاكم والمحكوم فى تونس نفسها ، وقبل أن يحددوا علاقاتهم بالدولة صاحبة الحماية. وكان اعتمادهم على الاضرابات واقفال الحوانيت يعتبر سلاحا من أسلحة الطبقة الوسطى دون غيرها . وكان هذا يضعف الحركة

الدستورية فى تونس ، ويجبرها على الالتجاء من وقت لآخر الى الطبقة الشعبية ، ولكن على أساس تكتيكى ، وفى معارك معينة ، ودون أن يسمح لها القادة بالمشاركة فى القيادة أو الاستمرار فى العمل لفترة قد تهدد سيادة ونمو الطبقة الوسطى .

وكان الأمر يشبه ذلك الى حد بعيد مع حزب الاستقلال فى المغرب ؛ ذلك الحزب الذى ساعد محمد الخامس كثيرا على نشأته ؛ ولكنه جمع معظم رجاله من بين أبناء الطبقة الوسطى ، الذين يعملون بالتجارة كذلك ، أو الذين يملكون من الأراضى والقطعان . الا أن حزب الاستقلال فى المغرب الأقصى قد سبق معركة الاستقلال على معركة الدستور . ولا شك أن ملك المغرب بصفته أميرا للمؤمنين ، وفى نفس الوقت ملكا للمغرب جعل أبناء الطبقة الوسطى لا يتطلعون الى سلطاته ، والنمو على حساب هيبته . ولكن حركة الاستقلال فى المغرب الأقصى خشيت على نفسها كذلك من الطبقة الشعبية ، وخشيت من استخدامها فى حركات واسعة ، قد تؤدى الى نزع السلطات من أيديها ، وتحولها الى أيدى الطبقة الكادحة . ولذلك فان حزب الاستقلال قد تمركز فى المدن ، وهى المراكز الثقافية والحضارية فى الاقليم ، وحاول أن يفرض نفوذه وسيطرته على المناطق الجبلية ، وباسم الاستقلال .

أما بالنسبة للجزائر فان الاحتكاك الطويل بالاستعمار الفرنسى كان قد قضى على الطبقة الاقطاعية الحاكمة ، والتى كانت تتمثل فى حكومة النيابة الجزائرية ، ثم كان بعد ذلك ورود الآلاف من المتوطنين الفرنسيين ، عاملا مميتا للطبقة الوسطى الجزائرية . وكان لاستمرار الثورات فى الجزائر والاحتكاك الطويل والمستمر مع الاستعمار ، أثره فى جعل الجزائر تظهر فى شكل مادة ثورية متمازجة ومتماثلة ، ويقوى من عنصرها الثورى ، ومن كفايتها وفاعليتها فى الثورة التحررية القادمة .

ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابى كان يعلم الفرق بين

العناصر والقيادات التى عملت معه ، وبتوجيه منه فى القــاهرة . ولا شك أن ذلك كان هو السبب الأساسى فى اقتراب وجهات نظره من الجزائريين .

ولقــد واصلت جبهــة تحرير تونس مجهوداتها ، وبمساعدة جامعة الدول العربية ، لعرض قضية تونس على الأمم المتحدة ، وحتى على مجلس الأمن . وكذلك قامت جبهة تحرير المغرب بنفس العملية . وزاد ذلك من حنق فرنسا ، ومن تشبثها ، وأدى الى تجمد سياستها ، وحتى تجمد تفكيرها . واستخدمت فرنســا الشدة والعنف ، سواء فى تونس أو فى المغرب الأقصى ، واستخدمتها مع الجميع ، واستخدمتها حتى مع محمــد الخامس ؛ وهدفت الى التخلص منه ونفيه عن البلاد . وكان ذلك سببا كافيا لاشعال الثورة فى المغرب العربى ، ولظهور البيانات ، وبدء الحركة المسلحة لتحرير البلاد من المحتلين الأجانب .

صدرت النداءات من اذاعة القاهرة ، ومن صوت العرب الى أبناء المغرب العربى ، بمقاومة الفرنسيين بكل وسيلة ممكنة ، وبقوة السلاح . وكانت هذه هى البداية . وبدأ التنظيم بالنسبة للمغرب الأقصى ، وأجبر ذلك تونس على التحرك ، وفى نفس الاتجاه .

واذا كان علال الفاسى قد بقى فى القــــاهرة فى ذلك الوقت ، يسترشد بآراء وتوجيهات الأمير عبد الكريم الخطابى ، فان حركة منظمة قد قامت الى جانبه لتزويد المغرب بالأسلحة والذخائر ، والعمل على تنظيم الرجال فى المقاومة ، وتنظيم جيش التحـــرير المغــــربى .

واذا كان الحبيب بورقيبه قد بقى كذلك فى القاهرة ، فان حركة منظمة أخرى قد قامت الى جانبه ، وعملت على تزويد تونس بما يلزمها من أسلحة وذخائر ، ولتنظيم رجال المقاومة وجيش التحرير التونسى داخل تونس نفسها .

وكانت هذه الحركة تعرف أن من واجبها النزول الى معارك مسلحة ضد الفرنسيين ، سواء فى المدن أو فى البادية . أما بالنسبة للمدن فقد أخذت هذه الحركة لنفسها اسم « المقاومة » وكان عليها أن تقوم بالقاء القنابل ، وعمليات النسف ، والتنظيم ، والاتصال بين الوحدات المجاهدة داخل المدن ، وفى تكامل مع عمليات جيوش التحرير ، التى بدأت فى التسلح ، وفى تنظيم صفوفها فى البادية .

وأشرف صالح بن يوسف على عملية التحرير فى تونس ، وكان من السهل وصول الأسلحة والذخائر الى هذا القطر العربى ، سواء عن طريق ليبيا والصحراء ، أو عن طريق السواحل ، أو حتى عن طريق الجو ان استلزم الأمر ذلك . وكان من السهل كذلك اعداد قوات الفدائيين وتدريبهم ، وفى أوقات قصيرة ، وكذلك تدريب الضباط فى أى منطقة من المناطق المتحررة فى العالم العربى ، سواء فى العراق ، أو فى سوريا ، ولكن على الأخص فى مصر .

وكذلك أشرف الدكتور الخطيب على جيش التحرير المغربى ، فى نفس الوقت الذى كان يعمل فيه جراحا فى طريق مديونة فى الدار البيضاء ، وتحت سمع سلطات الحماية الفرنسية وبصرها ؛ ورغم بطشها . وكان الدكتور الخطيب شابا ثائرا ، وكان صهرا للأمير عبد الكريم الخطابى .

ولقد أشرف الأمير عبد الكريم الخطابى من القاهرة على كل هذه العمليات ، وقام بتوجيهها وباعطاء النصيحة لها . وكانت صلاتهم بقيادة الثورة المصرية دعامة كبرى لهذه الحركات التحررية ، سواء أكان ذلك من الناحية المادية أم من الناحية المعنوية .

ولقد أفادت هذه القيادة السياسية والعسكرية ، قيادة الأمير عبد الكريم الخطابى ، من جميع الامكانيات والمواقف السياسية الموجودة أمامها ؛ أفادت من وجود طرق مواصلات ، ودروب فى الصحراء ، لتزويد المقاتلين بما يلزمهم من اخوانهم العرب . وأفادت

من وجود الطرق البحرية وسفن الصيد وغيرها ، لتزويد جبهات التحرير وجيوشها فى المغرب الأقصى بالامداد اللازم . كما أفادت من ذلك التنافس والصراع القائم بين فرنسا واسبانيا لتسهيل العملية ، وخاصة بالنسبة للمغرب الأقصى ، والتى كانت أقاليم الجزائر تفضلها عن بقية أقاليم العالم العربى ، خاصة وأن الثورة الجزائرية لم تكن قد أعلنت بعد .

وكان العداء الفرنسى الاسبانى الذى نتج بعد استيلاء الجنرال فرانكو على الحكم يعتبر عاملا فى صالح حركة التحرر الوطنى . وكانت اسبانيا تمارس سلطات حمايتها على المنطقة الشمالية من المغرب باسم سلطان البلاد ، والذى يمثله هناك خليفة يقوم هو بتعيينه . وحين قامت فرنسا بنفى محمد الخامس ، احتجت اسبانيا بأن فرنسا لم تشاورها فى الأمر ، ثم أعلنت أن خليفة السلطان محمد الخامس فى المنطقة الشمالية هو الممثل للسلطة الشرعية فى المنطقة ، وبصفتها مستمدة من محمد الخامس . وكانت هذه صفعة جريئة من اسبانيا لفرنسا ، وتهديدا لسياسة الشدة الفرنسية ، فى كل أقاليم المغرب العربى . ولذلك فان الأمير عبد الكريم الخطابى قد أفاد من هذا الموقف ، ومن أجل حركة التحرر ، وقام باستغلال المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى لاقلاق الفرنسيين فى المنطقة الجنوبية . وشهدت هذه المنطقة ، والتى تشتمل على الريف ، والتى يسكن فى وسطها بنوورياغل وأبناء يحيى ، مرور قوافل الأسلحة والذخائر ، وتجميع قوات المجاهدين وتدريبهم ، لتكوين فيالق جيش التحرير المغربى .

أما بالنسبة للجزائر ، فلا شك أن القيادة السياسية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت ، والتى كانت لها فاعلية ، كانت هى قيادة مصالى الحاج ، الذى تحولت حركته العمالية والشعبية الأولى الى حركة « انتصار الحريات الديمقراطية » ؛ هذا علاوة على زعامة فرحات عباس « لحزب البيان » ، والذى كان يمثل مجموعة من

المتعلمين ومن أبناء الطبقة الوسطى النامية . وكان حزب انتصار الحريات هو الذى يشتمل على العناصر المكافحة المناضلة ، ويشتمل على كثير من العمال ، وكثير من العناصر الشابة التى تفضل الجهاد . وجاءت عملية نفى محمد الخامس والبدء فى المقاومة فى كل من المغرب الأقصى وتونس لكى تدفع الجزائر دفعا صوب العمل كذلك ؛ وهزت التنظيمات السياسية الجزائرية بعنف ؛ وأدت الى ظهور جبهة التحرير الوطنى الجزائرى .

حقيقة أن مصالى الحاج كان يتمتع باسم وهيبة قديمة ، ولكن تقدمه فى السن ، وتجاربه ، جعلته يفضل حتى ذلك الوقت استخدام السياسة والمفاوضة وسيلة للوصول الى تحقيق أهدافه مع فرنسا ، حتى وان كان ذلك على مراحل . وحينما زاد ضغط الأحداث ، أظهرت بعض العناصر الشابة رغبتها فى التحرك ، وفى تكامل مع كل من جبهات التحرير فى تونس وفى المغرب . وخشى مصالى الحاج على خروج الأمر من يديه ، خاصة وأن هذه العملية كانت ستؤدى الى انشاء تنظيمات جديدة ، ومسلحة ، وتتحدث بلغة أخرى تختلف عن لغته ، وهى لغة السلاح ، وستكون فى أيديها الوسائل الفعلية التى ستمكنها من العمل . ولذلك فانه قد أصر على سلطاته ، وبشكل يتعارض مع استمرار هذه الحركة التحررية ، وفى صالحه هو . وكانت العناصر الشابة على اتصال بالقاهرة ، وبمكتب المغرب العربى فيها ، وبالأمير عبد الكريم الخطابى . وحين جمد موقف مصالى الحاج ، وقرر فى مؤتمر بروكسل التخلص من هذه العناصر الشابة ، أعلنت هذه العناصر فى يوليو سنة ١٩٥٤ خروجه هو عن الحركة ، وقررت العمل ، وفى توافق مع بقية جبهات التحرير فى المغرب العربى . وكان هذا هو ميلاد جبهة التحرير الوطنية الجزائرية .

وأخذت جبهة التحرير الجزائرية فى الاستعداد للمعركة ، وبتنظيم جديد ، وبفاعلية كبيرة . وكان يوم فاتح نوفمبر سنة ١٩٥٤ هو يوم اعلان الثورة ، بل هو ساعة الصفر لمعركة التحرير المسلحة

فى الجزائر . وكانت هذه صدمة كبيرة لفرنسا ، التى اعتقدت فى امكان اعتمادها على « المقاطعات » الجزائرية لفرض نفسها بالقوة على كل من تونس والمغرب ؛ وفكرت حتى فى استخدام القوى البشرية الجزائرية ، واستغلالها ، فى عملية كبت الحركة التحررية فى الاقليمين المغربيين المجاورين . ولا شك أن اعلان ثورة الجزائر كان عاملا فعالا أجبر فرنسا على تسوية موقفها ، واعادة النظر فى علاقاتها مع كل من تونس والمغرب ، حتى وان كان ذلك على مراحل، وحتى اذا ما اشتمل على نيات بعيدة للتفريق بين الاخوان المجاهدين ، وتجميد الأوضاع ، أو تحذيرها ، فى كل من تونس والمغرب ، حتى تتمكن من السيطرة على الجزائر ، ثم تعود بعد ذلك لاعادة فرض نفسها على كل من تونس والمغرب .

ولكن فرنسا واجهت هذه المرة رجالا مصممين على انتزاع حقوقهم بالقوة ، معتمدين فى ذلك على قوة ايمانهم ، وعلى قوة سلاحهم الذى يحصلون عليه من اخوانهم ، ومن أصدقائهم ، وحتى من أعدائهم ، وحتى من الشيطان .

وكانت الخطة التى وضعت بتوجيه من الأمير عبد الكريم الخطابى لرجال التحرير فى أقاليم المغرب العربى الثلاثة تتلخص أولا وقبل كل شىء فى الاكثار من فتح جبهات التحرير ضد فرنسا ، اذ أن القضاء عليها سيرغم اسبانيا على الانسحاب ، ودون كبير مقاومة ، بل ان هذه الخطة ستسمح للمجاهدين المغاربة بالاستناد الى اقليم يسهل عليهم الحركة ، ويسهل عليهم الامداد والتموين ، ولا يمكن للسلطات الاستعمارية الاسبانية أن تبقى فيه طويلا بعد اجبار فرنسا على الخروج من مناطق حكمها . وكانت هذه الخطة تشتمل بعد ذلك على ضرورة عمل كل جيش تحرير فى اقليمه ، وفى تعاون وتكامل مع بقية جيوش التحرير فى الأقاليم المجاورة ، ومعنى ذلك نزول جيش التحرير الذى ينتهى من عمله فى اقليمه الى الاقليم المجاور للعمل فيه ، ما دامت الوحدة بين الأقاليم الثلاثة هى هدف ، بل

أمل يراود الجميع . ولا شك أن هناك شرطا كان الجزائريون قد تقدموا به ، وكان حبيبا الى قلب وعقل الأمير عبد الكريم الخطابى ، وهو أن عملية التحرير السياسى ، واخراج المحتل المستغل الأجنبى لم يكن الا خطوة أولى ، ومرحلة من مراحل تحرير شعب هذه الأقاليم من الاستغلال الداخلى ، والوصول الى تطبيق عدالة اجتماعية ، لا تعترف بالاستغلال الداخلى ، أو الامتيازات الطبقية . وسيؤدى كل ذلك فى النهاية الى تحرير البلاد سياسيا ، واقتصاديا ، والى وحدتها مع بعضها ، ومع بعض اخوانها فى المشرق العربى .

واذا كانت هذه السياسة قد نجحت فى المراحل الأولى منها ، وكما أشار بها الأمير عبد الكريم الخطابى ، واعتنقها رجال التحرير المخلصين ، الا أن تطور الأحداث ، وتطور موقف القوى من بعضها أدى الى تعديل فى نتائجها ، وخاصة حين ظهرت الفروق واضحة بين السياسة والجهاد .

الفصل السابع عشر

بين السياسة والجهاد

تأزم الموقف فى فرنسا ، وخشيت حكوماتها الضعيفة المتتالية من تمكن جبهات تحرير المغرب العربى من النزول الى معارك متكاملة ومنسقة فى الأقاليم المغربية الثلاثة فى نفس الوقت ؛ وزاد هذا الخوف ، مع ارتفاع صوت العرب من القاهرة ، مناديا أحرار المغرب بامتشاق السلاح ، والكفاح حتى النهاية . وشعرت فرنسا بوجود تنظيم سياسى وعسكرى يجمع بين قيادات التحرير فى بلاد المغرب ، ولمحت مكانه فى القاهرة ، كما لمحت مجهود الأمير عبد الكريم الخطابى فيه . وكانت هذه المشغولية العسكرية الجديدة بالنسبة لفرنسا تتطلب منها زيادة التضحيات فى الرجال والأموال ، وفى وقت لم تكن فيه مشكلة الهند الصينية قد وصلت الى حل بعد ؛ بل ان فرنسا كانت تتنبأ لنفسها هناك ، فى الشرق الأقصى ، بهزيمة منكرة على أيدى قوات الفيات مين . واضطرت فرنسا الى استخدام السياسة لمحاولة كسب الوقت فى شمال افريقية ، وعلى أساس مهادنة بعض العناصر المحاربة ، أو بعض العناصر السياسية فى هذا الاقليم أو ذاك ، حتى تتمكن من الاحتفاظ بالجزائر قبل كل شىء ، وبصفتها قاعدة يمكن منها اعادة النفوذ الفرنسى على كل من تونس والمغرب . وكان هذا هو الأساس لزيارة منديس فرانس لتونس ، وتصريحه هناك برغبة حكومة باريس فى انهاء الحماية الفرنسية على تونس ، وفى الاعتراف باستقلال الاقليم ، وان كان ذلك على أساس الاستقلال الداخلى ، فى نطاق « التكامل مع فرنسا » . وكانت هذه السياسة تهدف

التفرقة بين تلك العناصر التى توافق على أنصاف الحلول ، حتى وان ادعت أنها خطوة تتلوها خطوات للتدرج على السلم ، وللوصول الى الاستقلال التام ، تفرق بين هذه العناصر والعناصر الأخرى المجاهدة ، التى لا تقبل فى الحق مساومة ، ولا ترضى الا بالاستقلال الذى ينتزع بقوة السلاح من المحتلين الأجانب . وكانت هذه السياسة هى أساس ذلك الاختلاف الذى سيزداد وضوحا مع الزمن ، بين كل من الحبيب بورقيبه وصالح بن يوسف .

ولم تكن هذه السياسة وخطرها بعيدين عن تفكير الأمير عبد الكريم الخطابى ، ورأى خطرها ، وتنبأ بجسامة هذا الخطر ، وحذر منه ؛ واستقر رأيه ورأى قادة جبهة التحرير التونسية على ضرورة الاحتفاظ بقوات جيش التحرير التونسى ، وبأسلحتها وتشكيلاتها فى الميدان ، فى نفس الوقت الذى يقوم فيه الحبيب بورقيبه بمفاوضة الفرنسيين ، وانتزاع الحقوق منهم خطوة بخطوة ، كما كان ذلك حبيبا الى قلبه . وكان هذا التوجيه يفيد الحركة الوطنية التحررية فى تونس ، من حيث أنه يساندها فى مفاوضتها السياسية مع فرنسا بقوة ضغط حربية ومادية لا يمكن لأحد أن ينكر قوتها ؛ وكان الاحتفاظ بجيش التحرير التونسى يعتبر فى نفس الوقت وسيلة للضغط على فرنسا فى الجزائر ، ويشتت قواتها على خطوط قتال طويلة ، وعلى جبهات متعددة ، وفى صالح جيش التحرير الجزائرى . ولذلك فان عناصر الجهاد الجزائرية كانت أقرب ما يكون من سياسة عبد الكريم الخطابى فى هذه النقطة بالذات ، وأكثر من غيرها .

ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابى قد أصابته خيبة آمال كبيرة ، فى الوقت الذى تمكن فيه الحبيب بورقيبه من الاتفاق مع فرنسا ، وفى نفس الوقت الذى عمل فيه على القضاء على جيش التحرير التونسى ، وانقلب على صالح بن يوسف ، واعتبره عدوا لكونه من رجال التحرير البارزين ؛ اذ أن هذا الموقف كان ضربة

وجهت الى اخوانه الجزائريين ، الذين كانوا يحتاجون الى كل مساعدة ، وهم فى الميدان . ولقد استتبعت « تفيير المواجهة » هذه من الحبيب بورقيبة قيام صراع مسلح بين الجيش التونسى الحديث ، وبين وحدات جيش التحرير التونسى الموجودة فى الجنوب ، وفى صالح قوات الاستعمار ، واستتبعت هذه العمليات قيام الحبيب بورقيبة بفرض الرقابة على الطرق والممرات الصحراوية ، والتى كانت تمر فيها قوافل وجماعات تزويد الجزائريين بالأسلحة والذخائر عبر ليبيا وجنوب تونس .

ومع ازدياد غيرة الحبيب بورقيبة على سلطاته ، وخشيته على نفسه من رجال التحرير التونسيين ، أخذ موقفا صريحا ضد قوات التحرير فى تونس ، وبشكل سمح للفرنسيين بحرية حركة واضحة فى الجزائر . ومع استمرار الزمن ، وحاجة الحبيب بورقيبة الى المعونات المادية والفنية من فرنسا ، أخذ فى اظهار انفصاله أو عدائه من وقت لآخر لعمليات جبهة التحرير الجزائرية . واذا كان الأمير عبد الكريم الخطابى قد شعر بخيبة أمل فى زعيم تونس السياسى ، فمما لا شك فيه أن خيبة الآمال هذه قد أصابت كثيرا من رجالات العرب ورجالات التحرير ، ومنذ ذلك الوقت . وعلاوة على كون هذا الاتجاه « البورقيبى » كان يعنى التخلى عن اتفاقياته مع اخوانه المغاربة ، فانه كان يدل على خروج عن الصف ، وهروب من الميدان ، وأنانية تعتبر شخصية له أكثر من كونها تعبيرا عن اقليم تونس . وأصبح على الجزائريين أن يواصلوا عملياتهم وهم يفضون الطرف عن الاساءات التى أصابتهم من قيادة تونس الجديدة .

أما بالنسبة للمغرب فان فرنسا قد عجزت فيه عن مواجهة قوات التحرير ، وكذلك جماعات المقاومة ، وخاصة بعد أن سيطر جيش التحرير المغربى على الأقاليم الشمالية والوسطى من البلاد ، وانفض كثير من المغاربة من حول سى تهامى الجلاوى وغيره من

باشوات وأعوان الحماية الفرنسية . وقررت فرنسا امكانية عودة محمد الخامس الى عرشه ، وان كانت قد حاولت فى هذه العملية أن تستر تقهقرها ، وبشكل يحفظ لها ماء وجهها . وأرسلت فرنسا الجنرال كاترو الى مدغشقر ، للتفاهم مع محمد الخامس وافهامه أساس العملية . وكان محمد الخامس كريما ، اذ أنه وافق على أن يحتفظ لفرنسا بماء وجهها . وجاءت فرنسا بمحمد الخامس الى نيس ، ثم استضافته فى فندق هنرى الرابع فى سان جرمان بجوار باريس . وأمام حضور سيد البلاد اضطر رجال التحرير الى التراجع . وكان محمد الخامس يرغب فى سرعة العودة الى بلاده اذ أنه كان يعلم أن أى تصريح يصدر من فرنسا فى ذلك الوقت لا يعنى الا الاعتراف بالاستقلال الفعلى للبلاد . وكان مجىء محمد الخامس الى بلاده يعنى انهاء نظام الوصاية أو الحماية ، وممارسة الحكم المستقل فى البلاد . وكان استقبال محمد الخامس استقبالا شعبيا منقطع النظير ، ولكنه كان عاملا فعالا فى تطور الأوضاع والعلاقات بين القوى الموجودة فى المغرب فى ذلك الوقت . وظهر رجال جيش التحرير المغربى فى هذه الاحتفالات كرجال قوات وطنية . حقيقة أن جيش التحرير المغربى ظل يسيطر على مناطق بأكملها من البلاد ، وكان لذلك وسيلة ضغط وطنية هامة على الفرنسيين ، أجبرتهم على الاعتراف بانهاء نظام الحماية ، والاعتراف باستقلال المغرب ، ودون هذا التكامل غير الواضح مع فرنسا . ولكن علينا ألا ننسى أن عملية بناء الدولة المغربية الحديثة كانت تلقى على هذه الدولة بمسئوليات جديدة ، وخاصة فى ذلك الوقت ، الذى لم تكن فيه العلاقات الفرنسية المغربية قد استقرت بعد . وكان استمرار الثورة فى الجزائر يعتبر تهديدا واضحا لكل من النفوذ والمصالح الفرنسية ؛ وكان أى تعاون ممكن بين جيش التحرير الجزائرى ، وجيش التحرير المغربى ، يهدد بالاساءة الى العلاقات بين فرنسا والمغرب من جديد . وكان المغرب يحتاج فى ذلك الوقت الى انشاء جيش وطنى « ملكى » . ولذلك

فانه قرر تصفية جيش التحرير المغربى ، وادخال العناصر الصالحة « واللائقة » منه فى هذه القوات الملكية الجديدة . وحاولت الحكومة المغربية بهذه العملية أن تمارس سلطات سيادتها الداخلية كاملة ، وأن تمنع قيام أى مشكلات مع فرنسا الصديقة ، وتنشىء جيشها الوطنى . ولذلك فان السياسة هنا قد سيطرت كذلك على القوى الفعلية للتحرير ، وبشكل ترك الجزائر من الناحية الفعلية تواجه بمفردها عمليات القمع والتطهير ، وعمليات الابادة والتدمير ، التى كانت القوات الاستعمارية الفرنسية تقوم بها بطريقة منتظمة ومستمرة . وكانت هذه السياسة الجديدة حقا من حقوق المغرب ، ولكنها تعارضت كذلك مع ما اتفق عليه رجال التحرير المغاربة مع بعضهم ، ومع الأمير عبد الكريم الخطابى .

وكانت الفترة السابقة لعودة محمد الخامس الى المغرب قد شهدت كذلك سوء العلاقات بشكل واضح بين الوطنيين والفرنسيين فى موريتانيا ، وانضم حرمة بابانا الى رجال التحرير فى القاهرة ، وظهر بعد أيام عند وادى درعة على رأس رجاله من جيش التحرير الموريتانى ، من رجال الرقيبات ، وأبطال الجنوب . ولكن سيطرة الوزارة المغربية على جيش التحرير الموريتانى منعه من أن يعمل فى مناطق المغرب الجنوبية ضد القوات الفرنسية هناك ، وضد هذه القوات فى الجزائر . ومارست حكومة المغرب كذلك حقوق سيادتها فى هذا القطاع ، واستندت الى حقوقها التاريخية فى موريتانيا ، والى سلطتها كدولة ، فى منع قوات جيش موريتانيا من العمل ، ثم فى تصفية قوات هذا الجيش .

ولا شك أن كل العالم الحر قد فرح كثيرا باستقلال المغرب ، الا أن رجال التحرير الموجودين فى الميدان قد شعروا بخيبة أمل واضحة نتيجة لذلك الانقسام الذى حدث بين العناصر السياسية وعناصر الجهاد والتحرير ، وخاصة فى تونس والمغرب ، وعلى حدود موريتانيا . وكان انتصار العناصر السياسية هناك يعنى حرمان

الجزائر من عوامل ضغط ، ومن قوى مساعدة ، كانت الجزائر فى أشد الحاجة اليها فى وقت تفرس فيه الاستعمار فى بلادها .

وشهد الأمير عبد الكريم الخطابى من القاهرة تطورا واضحا فى الأمور ، وتزايدا فى الضغط على الجزائر فى أثناء ثورتها . وتحول مكتب تونس ومكتب المغرب فى القاهرة الى مكاتب تهتم بالطلاب الوافدين من هذين الاقليمين المغربيين ، بعد أن حصلت أقاليمهم على الاستقلال . وأصبحت الجزائر هى القوة الوحيدة والفعالة الباقية داخل هيئة تحرير المغرب العربى ، وحظيت أكثر من غيرها بلقاءات مع الأمير عبد الكريم الخطابى ، وبنصائح وتوجيهات غالية من أمير ورجل ، خبر الرجال وخبر السياسة وخبر الحرب .

ودخلت تونس فى مشكلاتها الجديدة المتعلقة ببنيان دولتها ، وبهجمات الفرنسيين على حدودها ؛ وحاولت أن تدعم من استقلالها، ومارست تجربتها الخاصة مع جيرانها المغاربة ، واخوانها العرب ، وبقية الدول ذات المصالح الاقتصادية والعسكرية فيها ؛ واحتاجت الى تأييد فى مواقفها من اخوانها ، وخاصة حين قامت القوات الفرنسية فى الجزائر بهجماتها على قرية سيدى يوسف . ووقف رجال التحرير الجزائريين معها فى كل محنة ، وكان ضيفا الشرف فى حفلات استقلال تونس وتسلمها القاعدة بنزرت : أحمد بن بيللا وجمال عبد الناصر .

أما بالنسبة للمغرب فانه قد حرم لبعض الوقت من ذلك التأييد والمعاونة التى كان فى وسع اسبانيا أن تقدمها له بطريق مباشر ، أو بطريق غير مباشر من غيره من البلاد العربية الحرة . وكان ضم المنطقة الخليفية الى بقية أقاليم المغرب يعنى انهاء الاتفاقيات ، ووقف التعاون مع اسبانيا ، فى الوقت الذى امتد فيه النفوذ والمصالح الفرنسية ، مع حكومة المغرب الحديثة ، شمالا فى المنطقة الخليفية . وكم من رجل من أبناء الريف تساءلوا عما اذا كان الهدف من عملية التحرير هو اخراج فرنسا واسبانيا ، أو الاتفاق مع فرنسا

على أن يمتد نفوذها الادارى والثقافى والفنى على كل المغرب ، بما فيه المنطقة الشمالية وبلاد الريف . واذا كان المغـــرب يأمل فى الوصول الى اتفاقيات ثابتة ، أو الحصول على معونة من فرنسا ، فان آماله قد خابت ، واضطر فيما بعد الى أن يعتز بواجهة بلاده الكبيرة على المحيط الأطلسى ، ويحاول أن يأخذ لنفسه شخصية تواجه أمريكا ، والعالم الجديد .

والمهم من كل ذلك هو أن رجال التحرير فى الجزائر قد بقوا بمفردهم فى الميدان . واحتاجوا أكثر من ذى قبـل الى مساندة القاهرة وتأييد رجالها — ومنهم الأمير عبد الكريم الخطابى — لهم فى جهادهم وفى محنتهم .

وواصل رجال جبهة التحرير الجزائرية عملهم ، سواء أكان ذلك فى نطاق العمل الدبلوماسى فى الخارج أم فى نطـاق العمليات الحربية داخل الجزائر نفسها . وأصبحت القاهرة هى المركز الأول لهذه الجبهة فى الخارج ، وانتشر منها رجال الجبهة وقوادها ، فى جميع بلدان العالم ، يشرحون قضيتهم ، ان احتاج الأمر الى شرح، ويطلبون العون والتأييد من الحكومات الصديقة والمتحررة . وعمل فى هذا النطاق كل من أحمد بن بيللا ومحمد خيضر ومحمد يزيد والحسين آيت أحمد وبوضياف والأحول ومحمد أمين الدباغين وأحمد بودا وأحمد توفيق المدنى والدكتور أحمد فرنسيس وفرحات عباس وعبد الرحمن قيوان وعبد الحميد نهيرى ومحمد بن يحيى ومحمد ابراهيم . وكان هذا يدل على أن جبهة التحـرير الوطنية الجزائرية قد تألفت من جميع الاتجاهات السياسية الموجودة فى الجزائر ، ولكن على أساس وضع خطة جديدة ، هى خطة التحرير التى كان من اللازم على الجميع أن يعملوا على انجاحها ، بغض النظر عن اتجاهاتهم ، وتشكيلاتهم السياسية الخاصة . وانقسم العمل فى الجزائر على أساس وجود « جبهة تحرير » تتولى العمـــل السياسى ، « وجيش تحرير » يتولى العمليات الحربية . واذا كانت

الجبهة قد استقرت فى القاهرة واسترشدت بآراء رجالها وتوجيه الأمير عبد الكريم الخطابى ، فان « الجيش » كان هو المنفذ الفعلى لهذه السياسة فى الجزائر .

واذا كانت فرنسا قد نجحت فى شغل كل من تونس والمغرب بمشكلات السيادة الخاصة بهما ، ومشكلات انشاء دولة مستقلة حديثة تبدأ فى ممارسة سلطاتها ، فانها قد وجهت بذلك ضربة قوية الى رجال جبهة التحرير الجزائرية ، وتفرغت لمواجهة جيوش التحرير الجزائرية فى مناطقها المختلفة فى البلاد . ورغم ذلك فقد ازداد ظهور تصميم أحرار الجزائر على مواصلة الحرب . فدفع ذلك العناصر اليمينية والمتطرفة فى فرنسا الى التشبث بضرورة استخدام الشدة والعنف والقوة مع الجزائريين ، ووضع كل الامكانيات الممكنة فى سبيل الوصول الى هذه الغاية .

وهكذ شهدت الجزائر وصول امدادات حربية فرنسية كبيرة ، اشتملت على وحدات وفرق بأكملها من الأسلحة البحرية والبرية والجوية ، وأخذت تبنى معسكراتها فى طول البلاد وعرضها . وطلبت الحكومة الفرنسية احتياطى الجيش ، ووضعت نظاما معينا لتدريب هؤلاء الرجال والشبان ، وأخرجت من بينهم جنودا متطرفين ، لا يراعون قوانين الحرب ، ويحاولون اثبات رجولتهم أمام زملائهم القدماء بما يرتكبون من وحشية وغلظة ، حتى ان كان ذلك مع النساء والأطفال والشيوخ والأهالى العزل ؛ ما دام رجال التحرير يختبئون فى معاقلهم الى جوار الطرق وعلى الجبال . ونجح رجال الأعمال والرأسماليون واليهود فى اجبار حكومة باريس على تنفيذ سياستهم الخاصة بضرورة الاحتفاظ بالجزائر ، وفى صالح حفنة من رجال الأعمال وكبار الملاك . وحتى الحزب الاشتراكى الفرنسى خضع لهذه السياسة ، وبشكل ساعد على علاقاته مع القاهرة ، ومع حكومة الثورة الموجودة فيها . وقامت كل من تونس والمغرب بمحاولة لعقد مؤتمر فى تونس مع قادة الثورة الجزائرية ،

وذلك تمهيدا للتوسط بين رجال الثورة الجـزائريين وفرنسا ، ومحاولة منهم لاعطاء فرنسا فرصة لستر عملية تقهقرها بلباقة . وبعد أن حضر بعض زعماء الثورة الجزائرية الى الرباط ، وتباحثوا مع محمد الخامس ، استعدوا للسفر الى تونس . وكانت ادارة المخابرات الفرنسية قد أعدت للأمر عدته ، واتفقت مع قائد الطائرة الفرنسى ؛ وبدلا من أن تصل الطائرة المقلة للزعماء الى تونس ، وصلت الى مطار الجزائر ؛ ودفع زعماء الثورة الجزائرية الخمسة فى أيدى السلطات الفرنسية . وكانت هذه العملية ضربة ثانية نجحت فرنسا فى توجيهها الى ثورة الجزائر ، واحتاجت الثورة الى بعض الوقت لاعادة تنظيم قيادتها ؛ ودون أن تحصل على الكثير من العون والتأييد الا من الرجال الثوار ، ورجال التحرير . أما الساسة فقد كانوا يؤمنون دائما بالاتفاقات ، ويوافقون فى أغلب أحيانهم على أنصاف الحـــلول .

وكان لتزايد اشتعال الثورة الجزائرية ، وامتداد سلطتها فى كل اتجاه ، وعلى جميع المناطق فى الجزائر ، أثر فى أن اتخـــذت السلطات الفرنسية هناك سياسة التخريب والتدمير والتعذيب والابادة ، وسائل لتحطيم معنوية ذلك الشعب المناضل ، واجباره على القاء السلاح ، أو التراجع عن معركته . ولكن هذه العمليات أدت الى زيادة صلابة أعواد المجاهدين ، وزادت من رفع روحهم المعنوية لكى يواصلوا المعركة . وأثبتوا بذلك أنهم فخر المغرب ، وفخر الأمة العربية ، ويمكنهم أن يباهوا غيرهم بأنهم أبناء مجاهدى الريف ، والجيل التالى لعملية كفاح الأمير عبد الكريم الخطابى ضد الاستعمار .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابى فى أيامه الأخيرة لا يأمل فى شىء أكثر من رؤيته الاستعمار يخرج من بلاد المغرب العربى بأكملها ، وحقق الله له أمنيته ، اذ أنه سيسمع باستقلال الجزائر ، وانشاء الجمهورية الجزائرية قبل أن يوافيه أجله المحتوم فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٢ ، ولكل أجل كتاب .

الفصل الثامن عشر

صـــفاته وأخـــلاقه

قد يعتقد من يقرأ سيرة الأمير عبد الكريم الخطابى ويعرف أعماله أنه زعيم عربى فارع الطول جهورى الصوت ، له حركات تسكت أقوى المتحدثين امامه . والواقع أن الأمير عبد الكريم الخطابى لم يكن له من هذه المقومات الكثير ؛ اذ أنه كان قصـــير القامة فى اعتدال ، وكان يكثر من الصمت ، ويفضل الصمت على الحديث ؛ كما أن صوته كان خافتا ، وبدرجة تجبر من حوله على السكون ، وتجبره على الانصات .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابى من سلالة كريمة وشريفة ، واحتفظت لنفسها بزعامة المنطقة عبر قرون طويلة ، وكان آباؤه وأجداده هم أمراء قبيلة بنوورياغل ، واحتفظوا بالامارة فيما بينهم ، اذ أنهم كانوا أكثر خدمة للأهالى وللشعب ، وأقرب الى قلوبهم ، وأكثر دفاعا عن مصالحهم ، عن غيرهم من الشخصيات .

ولم تكن أسرة عبد الكريم الخطابى تعيش من عرق الأهالى ، أو تجبرهم على العمـــل والكدح لكى يعيش أفرادها فى رفاهية واضحة ؛ بل ان الرفاهية كانت أبعد ما تكون عن تلك الســـلالة المجاهدة التى عاشت على ظهور خيلهـــا ، واحتلت مسئوليات القضاء لفض النزاع بين الأهالى ، واحقاق الحق ، حتى وان كره الظالمون . وكانوا ، كسكان الجبال ، يمتازون بالتواضع ، ويمتازون بوضـــوح الرؤيا ، ولا يعرفون فى الحق اثنين . وكانوا يعترفون بالحق ، ويعلنونه ، ويؤيدونه ، اذ أن الحق كان من صفاتهم ، بل كان هو دينهم ، دين الحق ، دين الاسلام .

ومع هذا التواضع ، والاعتراف بالحق ، كانت أسرة عبد الكريم الخطابى تعتبر نفسها فى خدمة الأهالى ، وحسب المثــــل القائل « أمير اقوم خادمهم » ؛ وأدى ذلك الى اعتزاز الأهالى بتلك القيادة وتفانيهم فى خدمتها ، والاستماع الى مشوراتها ، بل السعى لطلب هذه المشورة ، وتنفيذها ، وكأنها أمر من الواجب اطاعته .

وكان الأمير من بيت كرم ، وهى صفة من صفات رجال الجبال ، الذين تضطرهم ظروف وأحوال المعيشة فى هذه المناطق الصعبة الى أن يحموا المستجير ، ويضيفوا الضال ، ويخدموا كل من ينزل عليهم ، ما دام يشبههم فى بساطتهم ، وحبهم للحرية ، واعتزازه بكرامته وشممه فى نفس الوقت . وكانت لحوم الضــــأن تكفى الجميع ، وحتى رغيف الخبز ، كان من السهل قسمته مع ضيف أو جار . وسمح ذلك لهذه القيادة التى يمكننا أن نسميها دون كبير خطأ ، بأنها ديمقراطية ، بل وانها شعبية ، بأن تتركز وتبنى سلطتها ونفوذها على قلوب الرجال ، فى نفس الوقت الذى تمارس فيه سلطات قيادتها ، وبصفتها خادمة للشعب .

وكان أبناء الريف وأبناء الجبال يمتازون بعشــــقهم للحرية ، واستماتتهم فى الدفاع عنها . وكان يكفى الفرد منهم أن يقف على سفوح الجبال وقممها ، لكى يرى نفسه قريبا من السماء ، مسيطرا على الطبيعة ، ومستعدا لتقديم الواجب لأى فرد يضل الطريق فى مسالك الجبال ، أو يطلب العون . وكان هؤلاء الرجال الأحرار لا يقدمون عليهم الا من يكبرهم سنا ، أو يمتاز عليهم برجاحة فى العقل ، وزيادة فى الحكمة ، وصلابة لمواجهة المواقف ، وحتى لمواجهة الطبيعة ، مهما كانت قاسية . وكانوا يقومون من أجل الانسان ، وفى سبيل الانسانية ، والتى قد تعجز عن مواجهة هذه الطبيعة القاســـية فى تلك المناطق الجبلية الوعرة . ولا شك أن اختيـــارهم لقيادة آل عبد الكريم الخطابى لهم كانت فى نفســـها شهادة لتلك

القيادة بأنهم أمراء ، اختارهم الرجال لقيادتهم ، ولتوجيههم ، وفى أصعب الظروف وأقساها .

وكما كان رجال الجبال يحاولون السيطرة على الطبيعة ، وانقاذ الانسان من خطرها ، فانهم كانوا يقومون بذلك بسليقتهم وبطبيعتهم، التى تقرب من الفطرة . وجعلهم كذلك يعتزون بالاسلام ، وبصفته دين الفطرة . وهكذا امتازت حرية هؤلاء الرجال وديمقراطيتهم وشعبيتهم باعتزازهم بالاسلام دينا ؛ وكانوا بذلك من المؤمنين المخلصين ، الذين لا يعرفون للاسلام بديلا . وجاءت الظروف الطبيعية ، مع أخلاق ذلك الشعب ، لكى تحترم القوة الفعلية ورجاحة العقل ، وتحترم القيم والمثل ، وترفض الخضوع والخنوع .

وكانت الطبيعة القاسية فى الجبال تحتاج الى صفات أخرى من الشجاعة ورجاحه العقل والتصميم ، ومن العمل ، وفى سبيل الانسانية ، وباسم الله ، أكثر من احتياجها لطول القامة ، أو لارتفاع الصوت لكى يسيطر المتحدث على المتجمهرين حوله من العباد . كانت طبيعة عمل ، وليس للحديث والخطابة فيها مكان كبير . وكانت القيادة التى نشأت فى الاقليم تمتاز بالعمل ، وبرجاحة العقل ، أكثر من اعتمادها على الفصاحة والخطابة . وكانت هذه هى صفات الأمير الشيخ والد عبد الكريى الخطابى ، وكانت هى نفس صفات الأمير عبد الكريم الخطابى .

امتاز عبد الكريم الخطابى اذن بقامة قصيرة وعادية ، ولكنه امتاز بحدة الذكاء ، وبالتصميم على العمل ، وبطريقة منطقية وبسيطة ، ولكن لها فاعلية فى أى عملية يقوم بها .

وكان الأمير عبد الكريم حاد البصر ، كبقية أبناء الجبال ؛ وكان صغير العينين ، ولكن نظراته كانت ثاقبة كنظرات النسور فى الجبال ؛ وكان هذا يدل على سرعة تصميمه ، وعلى قوته فى التنفيذ .

وكان الأمير يرتدى الرداء المغربى العادى لكل الرجال فى تلك المنطقة ، وهو الجلباب الصوف ، الذى يقيه البرد ، دون تمييز له عن

غيره من الرجال . وحين يسير الأمير كان من السهل على النظارة أن يعرفوا أنه هو الأمير ، اذ أن ذلك العرج البسيط فى احدى قدميه كان يميزه عن غيره ومنذ ذلك الحين ، والوقت الذى قام فيه بمحاولة للقفز من أعلى أسوار سجن مليلة بعد أن كان الاسبانيون قد اعتقلوه هناك . واضطر ذلك الأمير الى أن يسير بمساعدة عصا ، حتى يتمكن من التغلب على تلك العاهة التى أنزلها به الاستعماريون.

أما فى الحرب فقد كان الأمير عبد الكريم بسيطا فى شكله وملبسه وحركاته ؛ بل كان متواضعا . وشهد المراسلون الحربيون لجريدة التايمز وجريدة الماتان ، الذين زاروه فى مقر قيادته فى أجدير ، بأن غرفته ، « غرفة ومكتب رئيس جمهورية الريف » ، كانت قاعة بسيطة وصغيرة ، ولا تشتمل الا على منضدة من الخشب ، وبعض الأرائك المغربية « الخشنة » وتمتلىء حوائطها بخرائط أركان الحرب الاسبانية الخاصة بمناطق العمليات فى شمال المغرب . وكان الأمير يجلس فى هذه القاعة مع أركان حربه ، ويعاملهم معاملة الاخوان والزملاء فى المعركة ، فى الوقت الذى كان يؤثر فيه على مستقبل امبراطوريتين : الاسبانية الهرمة ، وكذلك الامبراطورية الفرنسية ، التى كانت تسيطر فى ذلك الوقت على ثلث سكان العالم.

أما عن ثقافة الأمير فكانت هى الثقافة العربية الاسلامية فى أبسط صورها ، ولكن فى أجلى معانيها ، اذ أنه كان قد تعلم العربية وبعض الحساب ثم العلوم الدينية فى كل من مليلة وفاس . وكان أستاذا ، أو فقيها فى الشريعة ، وسمح له ذلك بتولى منصب القضاء فى مليلة ، احدى قواعد الحكم الاسبانى فى شمال المغرب فى ذلك الوقت . ولا شك أن ثقافته العربية الاسلامية ، علاوة على سلطات منصبه الذى احتله فى القضاء ، جعله يعتز بنفسه كقاض فيصل ، وكحكم يحكم على عباد الله ، وبشريعة الله ، وباسم الله ؛ ولا شك أن ذلك قد أسهم اسهاما كبيرا فى اتمام شخصيته ، كقائد وزعيم يحكم فى صالح شعبه الذى حاولت الدول الاستعمارية أن تهضم حقوقه .

ولقد أفاد الأمير عبد الكريم الخطابى من معاونة أخيه له ، وهو الأمير محمد الذى كان قد تعلم التعليم الغربى فى ملقه ، ثم تخصص فى مدريد فى هندسة المناجم والتعدين . وهكذا جاء أخوه ، كرجل عملى ، يمتاز بثقافة عصرية ، لكى يكمل الأمير ، كرجل من رجال العروبة والاسلام ، ورجل من رجال الفكر ، وفيصل فى الحق . واستعان الأمير عبد الكريم الخطابى بأخيه محمد أكبر استعانة ، وخاصة فى العمليات الحربية التى وقعت فى القطاع الغربى من منطقة الريف ، وفى منطقة الجبال ؛ ووجد الأمير عبد الكريم فى أخيه خير عون له فى العمليات الحربية ، وفى قيادة الرجال ، وفى تنفيذ الأوامر المتفق عليها .

واذا كان بعض الكتاب الغربيين قد نظروا الى عبد الكريم الخطابى على انه رجل دنيا أو بمعنى أصح أنه يحاول الاشراف بنفسه على عملية استخراج خام الحديد من المناجم الواقعة قرب مليلة والحسيمة ، فانهم فى ذلك قد أخطأوا خطأ كبيرا ؛ اذ أن هذا الدافع لم يكن كافيا لكى يقوم الأمير بما قام به فى وجه اسبانيا ، بل كان من السهل عليه أن يتفق معهم على استغلالها، ولا يفسر أبدا عملية هجوم الأمير عبد الكريم الخطابى صوب الجنوب وصوب الأطلس ، ولكى يحتل تازا ويقطع خطوط مواصلات الفرنسيين فى سهول المغرب الغربية عن قواتهم الموجودة فى ذلك الوقت فى وجدة وتلمسان والجزائر . ولو كان الأمير عبد الكريم الخطابى من رجال الدنيا ، أو من رجال الاستغلال لوجد طريقا آخر للاتفاق مع المستعمرين ، وبصفتهم أكبر قوى استغلالية عرفها العالم حتى ذلك الوقت .

والواقع أن الأمير عبد الكريم الخطابى كان رجل مبادىء ، ورجل تحرير ، ولا يرغب فى رؤية تحكم الأجنبى المسيحى فى رقاب الأهالى ، وفى أقوات ومصائر عباد الله الصالحين .

واذا كانت الدعاية الغربية قد حاولت اظهار الأمير عبد الكريم الخطـابى على انه يحاول فرض سـلطة العناصر البربرية على العناصر العربية ، فان هذا الادعاء لا يثبت طويلا على المحك ، خاصة وأن الأمير ورجاله لم يكونوا يفضـلون عربيا على عجمى الا بالتقوى . ومن السهل على الجميع أن يتصوروا وصـول الأمير عبد الكريم الخطابى الى السلطة ، اذا ما رغب فى ذلك ، واذا ما تنازل عن مبادئه ، وخاصـة فى تلك الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، والتى نجحت فيهـا كثير من القيادات الثانوية فى التمركز فى السلطة ، وبمساعدة الاستعمار . ولكن الواقع أن ثورة الأمير عبد الكريم الخطابى كانت ثورة تحررية ، وتعتز بعروبتها ، وتعتز بالاسلام الذى حفظ العروبة ، بما أنزله الله على العرب من القرآن .

وامتاز الأمير بحبه للتنظيم ، وبتفننه فى ذلك ، وقام بهذه العملية فى صـمت ، ولكن مع تفكير ، وحسن تقدير للمواقف وللرجال . وتدل العمليات الأولى التى قام بها الأمير عبد الكريم الخطابى ضد الاسبانيين عند ايجربين ، وحول أنوال على أنه كان يعرف كيف يفيد من طبيعة الأرض ، ومن الطرق ، والجبال، ومنابع المياه ، وكيف يفيد من كمية نيران قليلة ، وتفتح بقطاعات معينة ، لكى ينتصر ألف من المجاهدين على أربع وعشرين ألفا من قوات الاستعمار ، رغم تفوق الأعداء فى العدد والتموين وكل مستلزمات الحرب . واثبت عبد الكريم الخطابى فى هذه العمليات الأولى أنه يعرف كيف يستفيد من طلقة واحدة فى الاستيلاء على مدفع هاوتزر وأسر طاقمه . ولقد قام الأمير عبد الكريم الخطابى بكل ذلك من لاشىء ، أو بقليل من الأسلحة ، ولكن بفكر ثاقب وبحسن تدبير ، وبقوة ايمان توصله مع التصميم الى النصر .

وعرف الأمير عبد الكريم الخطابى كيف يفيد من ذلك الاقليم

الفقير من أسلحة الأعداء ومهماتهم . وعرف كذلك كيف يحصل على ما يلزمه فى ميدان المعركة ، ومن الأعداء . وسمح له ذلك بتسليح ذلك الجيش الذى أصبح دعامة جمهورية الريف ، والذى أقلق مضاجع فرنسا وأسبانيا مدة ست سنوات . واذا كانت معاركه الأولى قد شهدت هجوم رجال الريف بأسلحة صغيرة وبسيطة ، فان المعارك التالية ستشهد اشتباكات دامية يستخدم فيها رجال الريف قطع المدفعية وأجهزة التليفون ، والنزول الى معارك كبيرة وعلى خطوط طويلة ، وبطريقة منسقة ، وفى تكامل بين الوحدات المحاربة فى أرض المعركة . لقد تغير وجه الريف ، وحصل (أبناؤه) ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى ، ومنذ ذلك الوقت ، على ذلك اللقب الذى عرفوا به ، وهو أنهم أشهر جنود للهجوم فى العالم . وتمنى هتلر فيما بعد أن يكون رجاله من أبناء الريف ، حتى يتمكن من السيطرة على العالم . حصل أبناء الريف على هذه السمعة فى معاركهم ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى .

وشهدت المعارك التالية ، التى وقعت الى شمال فاس استخدام السلاح الثالث ، أو الحرب النفسية والمعنوية ، وكان سلاحا من الدرجة الأولى ، ضد قوات فرنسا فى المنطقة . وكان الأمير عبد الكريم الخطابى من بين أوائل القواد الذين يستخدمون هذا السلاح فيحسنون استخدامه ، وهو السلاح الذى أصبح له اليوم مكانا أساسيا فى كل الحروب . وسارت هذه المعارك على أساس تنظيم حديث ، كان يشبه تشكيل القوات المحاربة فى خطوط المارن سنة ١٩١٦ ، اذ أنه كان يشتمل على عدة خطوط ، ويشتمل كل خط على عدد من المواقع المحصنة بالدشم ، وعدد من الخنادق . وأثبت الأمير عبد الكريم الخطابى بذلك أنه يتفوق على الرجال العسكريين ، وعلى رجال أركان الحرب الذين تخرجوا من الاكاديميات العسكرية ، ومن سان سير أو من

فرسان . ولا شك أن شخصية الأمير عبد الكريم الخطابى قد تجاوبت وتكاملت مع شخصية رجاله المغاوير ، لكى تصـــل الى محققات عجز جنود الاستعمار والمرتزقة عن الوصول اليها ، رغم تسليحهم والانفاق عليهم ، والعناية بهم .

وأمام انتصـــار الأمير عبد الكريم الخطابى ادعت الدول الاستعمارية أنه كان يحظى بتأييد روسيا ، ولم يكن هناك أى تعاون بين الأمير وبين روسيا . أما اذا كان الحزب الشيوعى الفرنسي أو العناصر الاشتراكية فى فرنســا تؤيد الأمير وثورة الريف ، فان التكتيك الحربى الفرنسى فى ذلك الوقت هو الذى كان مسئولا عنه هذا التأييد ؛ ولم يكن ذلك يدل أبدا على اتجاهات يســارية عند الأمير . واذا كان المؤتمر الشـــيوعى الثالث قد استند الى انتصارات الأمير عبد الكريم الخطابى لكى يعلن تأييده لجميع حركات التحرر التى تقع فى المستعمرات ضـــد الدول الاستعمارية ، فان ذلك كان يعنى كذلك محاولة هذا المؤتمر تدعيم قواه فى العالم ، وعلى أســاس اضـعاف القوى والدول الاستعمارية التى عملت على كبت واستغلال الشعوب الحرة . والمهم هو أن هذه الادعاءات لم تكن تستند الى حقيقة واقعية ، ولم تؤد الى تزويد رجال الريف بالأسلحة أو الذخائر ، وهم فى حربهم ضد الاسبانيين والفرنسيين . أما تلك المظاهرات التى نظمهــا وأيدها الحزب الشيوعى الفرنسى فى باريس ، وتلك النشرات التى قام بتوزيعها لوقف الحرب ، فان الأمير عبد الكريم لم يكن له أى ضلع فيها ، بل كانت من أجل فرنسا ، وسمعة فرنسا ، ودولة الحرية وحقوق الانســـان ، قبل أن تكون من أجل الريف ، ورجال الريف .

وكان الأمير يعرف الحق ، ويعرف كيف يقوم بعمل تقدير للموقف . وبطريقة بعيدة كل البعد عن التهور ، أو التطرف

أو التعصب . وكان يعرف هدفه ، وهو ضرورة الوصول الى اعتراف الدول الاستعمارية المستعمرة بحقوق أبناء البلاد المشروعة ، وحريتهم فى تقرير مصيرهم . وخاصة بعد أن أعلنت عصبة الأمم هذه المبادىء ، واتخذتها شعارا لها . ولذلك فان معركته كانت معركة الحق ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه معركة للحرية . وكان الأمير فى نفس الوقت يقيس قواته بقوات الأعداء المواجهة له ، ولا يطلب الا ما كان من حقه أن يطلبه . ومع استمرار الوقت وتكتل الدول الاستعمارية ، وزيادة معداتها ورجالها فى الميدان أمامه ، قام الأمير « بتقدير للموقف » وشعر بصعوبة الاستمرار فى معركة حربية بين طرفين بعيدين كل البعد عن التوازن . فكانت شجاعة منه أن يقرر وقف العمليات ، ويطلب الصلح .

ولقد ابتعد الأمير عبد الكريم الخطابى بهذه العملية كل الابتعاد عن التهور ، وعن التعصب وعن التطرف ، وخاصة فى الوقت الذى شعر فيه بأن العملية قد أصبحت عملية انتحارية ، وأنها ــ اذا استمرت ــ لن تؤدى الا الى الخراب والدمار ، والى زيادة تفرس الاستعماريين فى البلاد ، وبشكل منقطع النظير . وكان صعبا عليه أن يسلم سيفه ، ويقبل النفى ، ولكنه قبل ذلك حتى يسمح للأجيال التالية بحق الحياة ، واستمرار الكفاح ، ومن أجل نفس المعركة . وكان أبيا ، لا يعرف الضيم ، ولا يرضى بالضيم لرجاله ، أو حتى لأعدائه ، وكان فى ذلك يعرف الحق ، ويمتاز بالايمان ، وبعمق الايمان .

ودلت عملية فرار الأمير من السفينة التى كانت تقله فى عودته الى فرنسا سنة ١٩٤٧ على أنه كان رجل خطط ، ويعمل فى صمت ولا يقبل أن تتخذه فرنسا وسيلة لارهاب غيره من الرجال ، الذين كانوا يعملون من أجل المغرب فى ذلك الوقت ؛ اذ أنه كان أكثر من

مجرد بطاقة ، وصمم ألا تكون هـذه البطاقة فى أيدى فرنسا ، وخاصة اذا كانت هذه الدولة ترغب فى أن تلعب بها ، وتلعب بها ضد سلطان البلاد .

كما أن فترة اقامته فى القاهرة دلت على أنه لا يسعى لزعامة ، ولا يبحث عن قيادة ، بل هو رجل من الرجـال يؤيد الجميع ، ويعضدهم ، ما داموا يسيرون على طريق الحق ، وطريق الحرية .

وكانت تصريحاته العديدة التى تصدر من القاهرة تعتبر حربا معلنة على الاستعمار الأجنبى فى شمال افريقية ، وكانت فى نفس الوقت تأييدا واضحا لجميع الرجال الذين وقفوا فى وجـه الاستعمار الأجنبى هناك . وأفاد بذلك الحركة التحررية الوطنية فى شمال القارة الافريقية أكبر فائدة ، ودون أن يترك للمستعمرين فرصة للوقيعة بينه وبين رجال التحرير فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية .

وحتى توجيهاته وآراؤه التى كان يقدمها لرجال التحرير ، ولمجاهدى المغرب العربى ، كان يقـدمها كأب لأبنائه ، وأخ أكبر لاخوانه الذين نزلوا من بعده الى الميدان ، ودون أن يفرض نفسه أو رأيه ، ومن أجل الحق ، ومن أجل النصر .

وكانت تصريحاته قصيرة وعميقة وواضحة ، ولا تقبل التفسير أو التأويل ؛ اذ انه كان راديكاليا فى موقفه ، ولا يعرف غير الحرية والوحدة أساسا ووسيلة وهدفا ، حتى وان كره الظالمون .

وكان الأمير قد أقسم ألا يعود الى بلاده الا بعد أن يخرج منها آخر جندى من جنود الاستعمار ، وحافظ الأمير على عهده . واذا كان محمد الخامس قد طلب اليه أن يعود الى بلاده سنة ١٩٥٩ وعلى أساس أن المغرب قد أصبح دولة حرة مستقلة تامة السيادة، فان دبلوماسية الأمير قد أملت عليه أن يحتج بتقدم سنه ، وثقل حركته ، واحتياجه الى الرعاية الطبية ، حتى يؤجل عودته الى

بلاده الحبيبة . وكان يعرف أن هناك نفوذا أجنبيا لا يزال قائما في بلاده ، وعلى اخوانه المغاربة . وكأن الأمير كان قد أصبح موزعا في ذلك الوقت بين أرض الكنانة التى أضافته وساندته وأيدته ، وبين بلاده التى ولد فيها ، وشب وترعرع ، وقاد عمليات الجهاد على أرضها .

وكان الأمير قد شعر بأن القاهرة ـ قاهرة المعز لدين الله ـ قد أصبحت هى مركز الثقل ، ومركز التحرر بالنسبة للعالم العربى والاسلامى ؛ واذا كان قد ولد فى المغرب فانه كان يرغب فى أن يدفن فى القاهرة . وكتب الله له ما أراد .

خاتمة

كان الأمير عبد الكريم الخطابى بطلا من أبطال التحرير سجل له التاريخ اسمه فى سجل الخالدين ؛ لكن علينا ونحن نكتب عنه الآن أن نعترف بأنه قد سبق عصره ، وعمل من أجل المبادىء قبل غيره من الرجال . واذا كنا الآن نفخر بعملنا تحت شعار الحرية والاشتراكية والوحدة ، فمما لا شك فيه أن الأمير عبد الكريم الخطابى حث على هذه الشعارات وعمل على تطبيقها من قبلنا بجيل ، ومن قبلنا بأربعين عاما .

أما عن الحرية فان الأمير كان رجلا من رجالها ، وعمل ، حين وجدها مهددة ، من أجلها ، ومن أجل تحرير رجال ولدوا أحرارا. ولا شك أن عمليات كفاحه ضد القوات الاسبانية والقوات الفرنسية كانت تدل على أنه يمارس الحرية ، ويعمل على تحطيم القوى المعادية لها ، وبطريقة عملية ، وبقوة التغيير الجذرية ، وهو يحمل السلاح فى يديه .

وأما عن الاشتراكية فانه قد طبقها فعلا ، حتى وان كان لم يتخذها لفظا فى نصه ووضوحه ، وخاصة فى ذلك العصر الذى عملت فيه القوى الرجعية والاستعمارية على تشويه معنى الاشتراكية بربطها بالحركة اللادينية من ناحية وربطها بالاباحية من ناحية أخرى . كانت اشتراكية رجال الريف تتمثل فى ذلك

النوع من العدالة ، الذى يطبق فى الانتاج ، والذى يطبق فى الجهاد، والذى يشارك فيه العاملون والمنتصرون ، نتيجة عملهم ، ونتيجة انتصاراتهم . وكانت هــذه العدالة بين النــاس ، فى الحقوق والواجبات هى الممارسة الفعلية للروح الاشتراكية ، والتى تتمشى مع الاسلام ، ودون الاخلال بقيمة هذه الحركة التحررية العادلة ، أو الربط بينها وبين الحركات الاشتراكية المادية التى ظهرت فى هذه الفترة .

وأما من حيث الوحدة فان حركة الأمير عبد الكريم الخطابى قد سارت فيها على أساس ممارسة السلطة الفعلية فى منطقة معينة يمكن اعتبارها مركز سلطة ، ومركز اشعاع ، بالنسبة للمناطق المحيطة بها . واذا كانت عمليات التحرير قد بدأت مع الأمــير عبد الكريم الخطابى فى أراضى بنووورياغل فانهـــا قد انتشرت واتسعت شرقا صوب مليلة ، وغربا صوب شفشــاون ومناطق الجبال . ولم يكن ذلك الا تمهيدا لوصل منطقة الريف ببقية مناطق المغرب . ولقد ظهر ذلك واضحا مع عملية هجوم أبناء الريف جنوبا صوب تازا واتصالهم برجال الأطلس المتوســط لكى يزيدوا من منطقة ثورتهم ، ومن حدود دولتهم ، ويعيــدوا وحدة قبــائل وحد الله بين أبنائها فى اللغة والدين ، والعادات والتقاليد ، وفى طريقة الانتاج ، وطريقة ممارسة الحياة ، وحتى فى الأهداف .

واذا كان الزمن ، أو الظروف قد وقفت فى وجه حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ، وفى وجه ثورته ، وأجبرته فى سنة ١٩٢٦ على وقف العمليات ، الا أن نفس الزمن ، ونفس الظروف ، قد عملت على انبات هذه الآراء والاتجاهات فى مناطق أخرى من العالم

العربى والاسلامى . وهكذا شعر الأمير عبد الكريم الخطابى فى القاهرة بعد سنة ١٩٤٧ وخاصة بعد سنة ١٩٥٢ ثم بوضـــوح سنة ١٩٥٤ أنه فى بلاده ، وبين اخوانه ، ويحيط به نفس الرجال ؛ وشعر أنهم يعملون من أجل نفس المبادىء التى حارب من أجلها منذ أربعين عاما .

ولا شك أن رجالات العرب يفخرون باسم الأمير عبد الكريم الخطابى بينهم ، سواء أكان ذلك فى ميدان القيادة ، أم ميـــدان التنظيم ، أم ميدان التكتيك ، أم ميدان تقدير المواقف ؛ ويفخرون أنهم اخوانه وأنهم الجيل التالى الذى يمكنه أن يحقق معـــارك وشعارات هذا القائد العربى الملهم .

دكتور
جـــلال يحيى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر — ١٩٦٨

محتويات الكتاب

صفحة

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ – محمد عبده	عباس العقاد
٢ – المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ – جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ – عبد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ – ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ – معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ – سيد درويش	د . محمود أحمد الحفنى
٨ – عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ – عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ – عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ – مالك	أمين الخولى
١٢ – القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ – الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ – الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ – ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ – المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ – الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ – الاصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ – زكريا احمد	صبرى ابو المجد
٢٠ – قاسم امين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ – شكيب ارسلان	احمد الشرباصى
٢٢ – ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ – أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
- عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ - الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ - الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ - الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ - الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ - احمد زكى	انور الجندى
٣٠ - حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ - مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ - رشيد رضا	د . ابراهيم احمد العدوى
٣٤ - اسحاق الموصلى	د . محمود احمد الحفنى
٣٥ - ابو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ - ابن المعتز العباسى	د . احمد كمال زكى
٣٧ - الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ - ابو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ - احمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ - الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ - صلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ - عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ - عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ - عبد العزيز جاويش	انور الجندى
٤٥ - ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ - محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ - حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ - احمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ . محمود حمدى الفلكى	احمد سعيد الدمرداش
٥٠ احمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ الأشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ – رفاعة الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ – زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ – الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ – ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ – ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ – السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ – المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ – المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ – جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ – الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ – ابن ماجد	د . انور عبد العليم
٦٤ – محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ – محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ – ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ – عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ – موسى بن نصير	د . ابراهيم احمد العدوى
٦٩ – ابو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ – عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ – على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ – ابو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ – العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ – أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيال
٧٥ – يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ – صقر قريش	عبادة كحيلة
٧٧ – البيرونى	د . محمد جمال الفندى د . امام ابراهيم احمد
٧٨ – عبد الكريم الخطابى ...	د . جلال يحيى